ISSN: 1817-6798 (Print)
Journal of Tikrit University for Humanities
available online at: http://www.jtuh.com

Political unity between the Marine Mamluks state (648-784A.H. / 1250-1382A.D.) and the Mamluk Jerxih state (784-923A.H. / 1382-1517A.D) and its diversity.

M.D. Hussein Ibrahim Mohammed Mustafa

Department of Social Sciences / college of Basic Education: Aqra / University of Duhok

***Keywords*:**
Unity between the personalities of the sultans of both countries and their diversity:
Unity in the factors of the two states and the factors of their fall and diversity:

A R T I C L E I N F O

Article history:
Received 10 Jun. 2016
Accepted 22 January 2016
Available online 05 xxx 2016

A B S T R A C T

Political unity and diversity between the Marine Mamluks and the Mamluk Jerxih state is considered as an important subject that didn't find enough research by people working in this field because they mostly focused on other fields of Mamluk political history. The motive of researching it was the lack of independent studies and previous research that dealt with political unity and diversity between the two elements Historical studies have paid great attention to studying the political history of the Emirates and the countries that are in west and east Islamic state including the Mamluk state with both jerxi and marine. Most researchers' efforts have not turned towards the study and showing the political unity and diversity elements with an important role in the field of history and humanity in general and Islamic civilization in particular

.© 2018 JTUH, College of Education for Human Sciences, Tikrit University

DOI: http://dx.doi.org/10.25130/jtuh.25.2018.05

Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit University for Humanities

الوحدة السياسيَّة بين دولة المماليك البحريَّة (648-784ه/1250-1382م) ودولة المماليك الجركسيَّة (784-923ه/1382-1517م) وتنوُّعها.

م.د. حسين ابراهيم محمد مصطف / قسم الاجتماعيات/ كلية التربية الاساسية: عقرة/ جامعة دهوك

الخلاصة

تعدُّ الوحدة السياسيَّة بين الدولة المملوكية البحريَّة والدولة المملوكية الجركسية وتنوعها من الموضوعات المهمة التي لم تلقَ العناية الكافية من الباحثين؛ لأنَّهم صبّوا جلَّ اهتمامهم - في الغالب - على جوانب أُخر من التاريخ السياسي المملوكيّ، وقد كان الباعث إليها قلَّة الدراسات والبحوث المستقلة التي تناولت عناصر الوحدة السياسيَّة وتنوعها بينهما .

* *Corresponding author: E-mail* : adxxxx@tu.edu.iq

أمَّا الدراسات التاريخيَّة فقد عُنيت عناية كبيرة بدراسة التاريخ السياسيّ للإمارات والدول التي قامت في مغرب الدولة الإسلاميَّة ومشرقها، ومنها الدولة المملوكية بشقيَّها البحريّ والجركسيّ، ولم تتَّجه جهود الباحثين إلى دراسة عناصر الوحدة السياسيَّة وتنوعها وبيانها بينهما مع أنَّهما قامتا بأداء دور مهم في مضمار التاريخ، والحضارة الإنسانية بشكل عام والإسلاميَّة بشكل خاص؛ ولا تزال جوانب منها تحتاج إلى تظافر جهود الباحثين؛ لتكتمل الصورة السياسيَّة لهاتين الدولتين، وعلى هذا الأساس انطلقتُ في هذا البحث لتناول الوحدة في الأوضاع السياسيَّة وتنوعها لهاتين الدولتين اللتين تشكِّلان جانباً مهماً في دراسة ما يقرب من ثلاثة قرون من تاريخ أُمَّتنا الإسلامية... ويتعيَّن على الدارسين كشف أبعاد التأثير الإسلامي في المقوّمات الأَساسيَّة لقيام الإمارات والدول التي ولِدت من رحم دولة المركز (الأُم)، وما أنجزتُهُ العقول الإسلاميَّة هناك، فقد نجح المسلمون في بناء أمة ودولة مترامية الأطراف تَسعُ ملايين الأفراد على اختلاف أعراقهم؛ والعيش بتآخ ووئام بكل يُسر مستفيدين من تراثهم السابق وتجاربهم في تشييد حضارة رائعة خلفت ثروة هائلة مازالت فاعلة وحيوية في ميدان تاريخ والحضارة العالميَّة.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على إمام المرسلين محمد وعلى آله وصحبه الطاهرين ومن اتبعهم الى يوم الدين، وبعد:

إنَّ من الموضوعات المهمة المتعلِّقة بالتاريخ الإسلامي دراسة عناصر الوحدة بين الدول والإمارات الإسلاميَّة وتنوعها التي ظهرت على الخارطة السياسية للدولة الإسلاميَّة , تلك الدول التي ولدت من رحم دولة المركز (الأُم) ولكي نبيّن أنَّ الوحدة السياسية مثلما هي عنصر من عناصر القوة الدولة الإسلاميَّة, نجد بالمقابل أنَّ التجزؤ والتشرذم السياسي بدل أن يكون سيفاً مسلطاً لإضعاف دولة المركز، فإنَّها ستكون عنصراً من عناصر القوة؛ لأنَّه سيتيح لهذه القوة الجديد التي ستكون أقرب إلى مواقع الأحداث من المركز (الأُم) لتؤدي دوراً تاريخياً بشكل أفضل ممَّا تؤديه الأم التي بلغت درجة من الشيخوخة والإعياء والعمر الزمني والبعد المكاني عن الحدث, فيما لا يمكنها من أداء مهماتها للاستجابة للتحديات بالكفاءة المطلوبة؛ لذا يتعيَّن علينا قبل الولوج في لجّة هذا البحث أن نحدد مفاهيم: الوحدة والتنوع، فالوحدة معروفة، ولكن ماذا يُقصد بالتنوع ؟ وما علاقته بالوحدة؟ وأول ما ينبغي ملاحظته أنَّ التنوع يعني في مجمل مفاصله التعدد في سياقاته المختلفة، فإذا كان الأمر على ما بيّنا والحال على ما وصفنا أدركنا أنَّ الوحدة والتنوع هما ميزتان امتازت بهما تاريخنا الإسلامية، بل هما من سماتها الرئيسة، ومن عواملها الحيوية الدافعة لها نحو التقدم والرقي في مدارج الحياة .

وتُعدُّ الوحدة والتنوع من الموضوعات المضيئة في تاريخ الحضارة الإسلامية، إذا ما دُرِست بشكل منظم ومنهجي بعيد عن الانتقائية والتفسير القسري للتاريخ، وإنَّما يجب دراستها في إطار عام، وهو حرية التفكر التي منحها الإسلام، وتلك الانطلاقة لتلك الحضارة التي كان للإسلام الدور المحوري في تكوينها وبلورتها، فالخلاف والاختلاف، والرأيُ و الرأيُ الآخر أمر ذو مكانة كبيرة في الفكر الإسلامي في مناحي الحياة بعامة، وكان ذلك من دوافع استمرارية تلك الحضارة لقرون من الزمن أبهرت العالم.

وتاريخ مصر العريق حافل بعديد من الدول التي تعاقبت في حكمها وبين هذه الدول العديدة التي زخر بها التاريخ المصري في العصور القديمة والوسطى والحديثة , تحتل دولة المماليك بشقيها البحريَّة والجركسيَّة(البرجيَّة) مكانة خاصة بارزة تجعل من عصر سلاطين المماليك عنصراً جديراً بمزيد من الدراسة والبحث والتمحيص, هذا فضلاً عن أنَّ الأحداث الخارجيَّة والداخليَّة التي ارتبطت بذلك العصر لا تعكس أهميتها على تاريخ مصر والشام فحسب بل على تاريخ الدولة الإسلاميَّة عامة في عصور الوسطى .

وإذا درسنا تاريخ المماليك لابدَّ من الإشارة إلى تلك الأعداد من الجنسيات الأُوربيَّة والآسيوية المتباينة حملهم تجار الرقيق صغاراً إلى بلاد غير بلادهم ليشبوا في أَرض جديدة وعلى ديانة جديدة وليصبحوا نواة الحكم وأداة الحكام وقوة المستقبل التي قدر لها أن تسيطر على مصائر البلاد أكثر من قرنين ونصف , قدر لها المشاركة في أكثر من أنجاز للأُمَّة الإسلاميَّة المتمثلة بالدفاع عن أرض الإسلام ونشره في بيئات جديدة وإغناء الحضارة الإسلاميَّة بمعطيات حضارية جديدة .

التمهيد/ ظهور المماليك في العالم الإسلامي وقيام دولة المماليك البحريَّة (648-78ه/1250-1382م) ودولة المماليك الجركسيَّة(784-923ه/1382-1517م) :

تعود الجذور الأُولى للمماليك في العالم الإسلامي إلى ما قبل دولتهم بأمد طويل وربما كان أوَّل من استعملهم الخليفة العباسي المأمون (198-218 هـ / 813 – 833 م) ثُمَّ الخليفة المعتصم بالله (218- 227 هـ / 833 – 841 م) الَّذي أكثر من شراء الأتراك وجعلهم قوة ضاربة[1]، وبعد ذلك توسع استعمال المماليك ولاسيَّما في الجيش إذ استعان بهم السلطان صلاح الدين الأيوبي في مواجهة الصليبيين[2] ، وبعد وفاة صلاح الدين (589 هـ/1193 م) ضعفت الدولة الأيوبيَّة لأسباب منها كثرة النازعات بين أمراء البيت الأيوبي للاستحواذ على السلطة وسعي كل أَمير إلى تكوين كتلة تحيط به وتحمي إمارته فأكثروا من شراء المماليك الصغار من الرقيق البيض [3] .

واكثر الأمراء الأَيوبيين إقبالاً على شراء المماليك هو الملك الصالح نجم الدين أَيوب (636_647 هـ/1238_1349 م)[4]، الَّذي استكثر منهم بشكل كبير بعد أَن تبيّن له ضعف ولاء القُوّاد الأكراد الَّذين كانوا في خدمته[5]، وفساد نيَّة الخوارزميَّة[6] فعمد الصالح نجم الدين أَيوب إلى تدعيم سلطانه بإنشاء جيش من المماليك ليحلوا محل الأكراد، والعناصر الأُخرى التي قامت عليها الدولة الأيوبيَّة فأقدم على شراء المماليك الأتراك إلى درجة لم يبلغها غيره من أَهل بيته حتى صار معظم جيشه منهم[7] وترجع أُصول المماليك الَّذين اعتمد عليهم الملك الصالح نجم الدين أَيوب إلى مناطق القفجاق، إذ كان لتقديم المغول نحو الشمال أثره في تشتيت شمل قبائلهم في أرجاء قارة آسيا في حين تعرض بعضهم الآخر للاسترقاق[8]، ولما كانت مصر مزدهراً اقتصادياً في ذلك العصر نظراً لموقعها الجغرافي المهم على طريق التوابل بين الهند وأوربا[9]، فقد دفع ذلك تجارة الرقيق إلى الإكثار من جلب المماليك إلى مصر والشام، وعمد الملك الصالح نجم الدين أَيوب

إلى اقتناء الأجود من بين أعداد المماليك الكثيرة الموجودة في سوق النخاسة[10]، وأسند لهم الوظائف الرئيسة، فضلاً عن تنشأتهم نشأة عسكرية إذ بنى لهم الثكنات في القلعة التي أنشأها بجزيرة الروضة في نهر النيل ليقيموا فيها ولا يبارحوها وسماهم المماليك البحريَّة[11].

لم يلبث المماليك البحريَّة أَن توصَّلوا إلى السلطة مستغلين الظروف والمتغيرات التي أحاطت بالمنطقة وعلى رأسها حملة لويس التاسع ملك فرنسا على مصر سنة (647 هـ/1250م) ودور المماليك في التصدّي للصليبين والانتصار عليهم في موقعة المنصور[12]، ثُمَّ فارسكور[13]، في العام نفسه[14] ، وكذلك انتصارهم فيما بعد على المغول التتار في موقعه عين جالوت- بالقرب من نابلس في فلسطين- سنة (658هـ/1260م)[15]، التي أوقفت الزحف المغولي وأنقذت مصر من خطرهم وأقصت المغول عن الشام، كما أنَّ الانتصار في عين جالوت سهَّل إعادة الوحدة بين مصر والشام وأعطت للمماليك السند الشرعي لحكم مصر والبلاد الإسلاميَّة التي حرروها من الاحتلال المغولي [16].

فقامت الدولة المماليك البحريَّة ابتداء من سنة (648-784هـ/ 1250-1382م) بتولي الحكم السلطان المعز عز الدين أيبك التركماني (648-655هـ/ 12501257م)[17]، بدلاً من شجرة الدرّ[18]، أَرملة الصالح نجم الدين أيوب التي تزوجت من الأمير عز الدين أيبك، وخلعت نفسها من حكم مصر لأيبك بعد أَن رفض الأمراء الأيوبيين والخليفة العباسي المستعصم بالله(640-656هـ/ 1243-1258م) الاعتراف بسلطة شجرة الدرّ[19]، وكان أَبرز سلاطين دولة المماليك البحريَّة : المعز عز الدين أَيبك، والمظفر سيف الدين قطز، والظاهر بيبرس، والمنصور سيف الدين قلاوون، والناصر ناصر الدين محمد وغيرهم من السلاطين[20]، إذ بلغ عددهم ثمانية وعشرون سلطاناً آخرهم السلطان الصالح صلاح الدين حاجي بن شعبان الَّذي خلفه برقوق الجركسي في الحكم سنة (784هـ/ 1382م) معلناً قيام دولة المماليك الجركسيَّة[21].

أمَّا المماليك الجركسيَّة(البرجيَّة) فهم عناصر قوقازية الجنس موطنهم الأصلي المنطقة الواقعة شرق البحر الأسود التي تعرف اليوم بجمهورية جورجيا، فقد تعرضت بلادهم إلى غزو التتار في النصف الثاني من القرن السابع الهجري/ الثالث العشر الميلادي فازدادت أعدادهم في أَسواق الرقيق ووصلت أَعداد كبيرة منهم إلى بلاد الشام ومصر[22]، وإذا ما علمنا أنَّ سلاطين الدولة البحريَّة كانوا أَتراكاً فالبرجية شراكسة أَو جراكسة باستثناء اثنين منهم وهما: خشقدم وتمربغا فهما روميان .

أمَّا تسميتهم بالبرجيَّة؛ لأنَّهم أقاموا في أبراج القلعة بالقاهرة[23]، ويرجع تكوينهم بوصفهم فرقة جديدة إلى بداية حكم سلطان الدولة البحريَّة المنصور قلاوون(678-689هـ/1279-1290م) الَّذي أكثر من شراء الجراكسة ليتخلَّص من صراع المماليك البحريَّة؛ وليضمن الحفاظ على السلطنة له ولأبنائه من بعده[24] .

وقد حرص المنصور قلاوون على تربيتهم التربية الدينية والعسكريَّة ولم يسمح له بمغادرة القلعة مطلقاً , فلمَّا توفي المنصور قلاوون وخلفه ابنه الأَشرف خليل (689-693هـ/ 1290-1293م) سمح لهؤلاء المماليك بالنزول من القلعة أَثناء النهار العودة إليه ليلاً ممَّا ترتب عليه أمران : الأوَّل: انغماس المماليك في الحياة العامة ومشاكلها بعد أَن خرجوا من عزلتهم واختلطوا بغيرهم من عامة الناس , والأمر الثاني: إنَّ المماليك البرجية لم يلبثوا أَن استثاروا حقد سائر طوائف المماليك الأَتراك بعد ما أَصبح فيه هؤلاء من نعمة وما حظوا به من مكانة مرقومة عند قلاوون، وابنه الأَشرف خليل[25]، وبعد شهور أَصبحت أَعداد هؤلاء الجراكسة كثيرة وغدوا أصحاب رتب عسكرية فمنهم الأمراء، والقادة؛ لذا استطاعوا أَن يتسنَّموا السلطنة ويحكموا البلاد[26] .

وحكم الجراكسة مصر والشام مايقارب المئة والأربعين عاماً تعاقب في حكمها ستة وعشرين سلطاناً لم تزد سنوات حكم كل فردّ فيهم خمسة عشر عاماً[27]، إلَّا لأربعة منهم وهم الأَشرف برسباي وقد حكم 16سنة (825 _841هـ/1422_1438م) والظاهر جقمق العلائي إذ حكم 15سنة (842_857هـ/1438_1452م) والأَشرف قايتباي وحكم 29 سنة (872_901هـ/1468_1496م) والأَشرف قانصوه الغوري وقد حكم 16 سنة (901_922هـ/1501_1516م)[28]؛ لذا فإنَّ السلاطين الجركسيَّة (البرجيَّة) قد ملك منهم تسعة في 124سنة وهم : برقوق، وفرج، والمؤيد شيخ، وبرسباي، وجقمق، واينال، وخشقدم، وقايتباي، وقانصوه الغوري، أمَّا الباقون فكانوا كلُّهم تقريباً قليلي الأهميَّة[29].

وانتهى الحكم المملوكي عموماً في مصر عام (923هـ/1517م) والعنصر الجركسي (البرجي) بخاصة على أثر الهزيمة التي مُني بها السلطان طومان باي (922-923هـ/1516-1517م) على أَيدي القوات العثمانيَّة في معركة الريدانيَّة[30] ، ودخول العثمانيين مصر وإنهاؤهم حكم دولة المماليك الجركسيَّة[31] .

المبحث الاول/ الوحدة بين شخصيات السلاطين لكلا الدولتين وتنوعها:

قامت النظرية السياسية لدولة المماليك بجانبها البحريَّة والجركسيَّة على أَساس أنَّ جميع أُمراء المماليك متساوون في أَحقيتهم بعرش البلاد الَّذي سيكون من نصيب أقوى الأمراء وأقدرهم على الايقاع بالآخرين من ناحية وعلى أساس الحرص على الواجهة الدينية المتمثِّلة في الحصول على تفويض الحكم من الخليفة الَّذي لم يكن له من الخلافة سوى اسمها [32] .

وأُوْلى عناصر الوحدة والتنوع كانت في الجنس, فقد امتازت دولة المماليك البحريَّة أنَّ سلاطينها جميعاً كانوا أَتراكاً ما عدا المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير الَّذي كان جركسياً , في حين امتازت دولة المماليك الجراكسة أنَّ سلاطينها جميعاً كانوا من أَصل جركسي ماعد اثنين هما: خشقدم وتمربغا كانا من أصل يوناني، لكن الوحدة هنا تبرز في أنَّ سلاطين الدولتين انحدروا من مناطق القفجاق والبحر الأسود , وتعرَّضت بلادهم إلى غزو المغول التتار، وجُلبوا عن طريق التُّجَّار رقيقاً أبيضَ إلى سوق النخاسة في بلاد الشام ومصر وعملوا بإخلاص في خدمة أسيادهم , وما لبثوا أن تبوَّؤوا الحكم في الدولتين البحريَّة والجركسيَّة[33] .

ثُمَّ يدخل عنصر الوحدة بين شخصيات سلاطين الدولتين في مواقفهم تجاه الخلافة العباسية المتمثلة بإحياء الخلافة العباسية في مصر على يد السلطان الظاهر بيبرس؛ لإعطاء الصفة الشرعيَّة لحكمه والحيلولة دون وصول الطامعين إلى السلطة ، وليظهر أمام العالم الإسلامي بمظهر الحامي للخلافة[34]، واستمرار الخلافة العباسية طيلة حكم دولة المماليك

البحريَّة ودولة المماليك الجركسيَّة، حتى سقطت الأخير بيد العثمانيين وانتهت معها الخلافة العباسية , ولكن سلطة الخليفة منذ احتل المغول بغداد (656هـ/1258م) أصبحت اسميَّة فقط ليس للخليفة فيها حول ولا قوة[35]، وعلى الرغم من تولّي الخليفة المستعين بالله السلطنة سنة (815هـ/1412م) وهو كاره لهذا التنصيب , إذ أدرك أنَّه تدبير مؤقت فلا يمكن بحسب الرأي السائد أن يحكم البلاد إلَّا المملوكي[36]، وفعلاً لم يمضِ عام حتَّى خُلع المستعين بالله عن السلطنة[37] .

ويبرز عنصر الوحدة والتنوع بين شخصية السلطان الظاهر بيبرس والسلطان الظاهر سيف الدين بربوق, الوحدة ليس بالنسب فالظاهر بيبرس من المماليك الأتراك الَّذين اشتراهم الأمير علاء الدين ايدكين البندقدار[38]، وهو أحد مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب، وعندما استولى الملك الصالح نجم الدين أيوب على ممتلكات علاء الدين البندقدار كان الظاهرة بيبرس من بين الَّذين استولى عليهم، وصار من المماليك البحريَّة[39]، في حين كان برقوق جركسي الجنس من المماليك الَّذين اشتراهم الأمير يلبغا الخاصكي واعتقهُ وجعله من جملة مماليكه[40]، ولكن الوحدة هنا تبرز في قوة هاتين الشخصيتين فالظاهر بيبرس يُعدُّ من الشخصيات القلائل التي شهدها التاريخ الإسلامي بعامة والتاريخ المملوكي؛ لأنَّه استطاع الحاق الهزيمة بالصليبين في موقعة المنصور، فكان على رأس فرقة المماليك البحريَّة التي ألحقت الهزيمة المنكرة بالصليبين، كما استطاع إلحاق الهزيمة بالمغول في معركة عين جالوت سنة (658هـ/1260م) فكان بيبرس على رأس الطليعة الفدائية في محاربة المغول[41]، وعندما تولَّى الحكم قام بإحياء الخلافة العباسية في مصر وقاد الجيوش الإسلاميَّة لإنهاء الاحتلال الصليبي في بلاد الشام، ودخل بلاد الروم وقضى على مملكة أرمينيا الصغرى لتعاونها مع المغول وأمن لنفسه السيطرة على الحجار، والأماكن المقدسة ومنطقة النوبة جنوب مصر [42]، وممَّا زاد من نجاح الظاهرة بيبرس التخلُّص من الطائفة الاسماعيلية[43]، والاستيلاء على معاقلهم في الشام بعد استغلهم الصليبيون ضد المسلمين[44]، وبفضل هذه الانجازات تربع بيبرس على عرش الزعامة للعالم الإسلامي, وأصبحت القاهرة مركزاً مهمَّاً من المراكز الحضاريَّة في العالم [45]، وفي استعراض انجازات الظاهر بيبرس يُعدُّ بحق المؤسس الحقيقي لدولة المماليك البحريَّة[46]، وكذلك الحال بالنسبة للسلطان الظاهر سيف الدين بربوق الَّذي تزعَّم المؤامرة التي عصفت بالسلطان الأشرف شعبان ومن ثُمَّ يرجع إليه الفضل في إمداد الجراكسة بفرصة للسيطرة على مقاليد الحكم في دولة المماليك إذ مهَّد السبيل؛ لوصول الجراكسة إلى منصب السلطنة؛ لأنَّ الظاهر سيف الدين بربوق نفسه كان جركسيَّاً وهو أوَّل من اعتلى السلطنة من الجراكسة الأمر الَّذي جعله المؤسس الحقيقي لدولة المماليك الجركسيَّة في التاريخ[47]، وفي استقراء آلية تولِّي كلا السلطانين الحكم يبرز عنصر التنوع بينهما فالسلطان الظاهر بيبرس وصل سدَّة الحكم عبر التصدِّي ومقاومة المغول والصليبين، أمَّا الآخر السلطان الظاهر سيف الدين بربوق فقد تأمر للوصول إلى الحُكم[48].

أمَّا بقيَّة السلاطين المماليك البحريَّة فنجد أنَّهم ساروا على مسيرة آبائهم وأجدادهم من حيث سيادة الأمن والاستقرار السياسي وساروا على خطاهم في قتل المغول، وتقويض دعائم الصليبين بالشام إذ استطاع بيت قلاوون وعلى رأسهم السلطان منصور قلاوون الَّذي أعلن مجدداً الحرب ضد الصليبين ثُمَّ شرع في إعداد المعدَّات لحصار عكا لكنَّه ما لبث أن توفَّي سنة (689هـ/1290م) فقام ابنه الأشرف خليل بإتمام مشروع أبيه فتمكَّن من تحرير عكا وصور وصيدا وبذلك عادت جميع البلاد الساحلية الشاميَّة إلى حوزة الإسلام في سنة (691هـ/1291م)[49]، وأكمل هذا المشروع الجهادي الناصر محمد بن قلاوون الَّذي تمكَّن من طرد الصليبين من بلاد الشام سنة (690هـ/1291م)[50] .

وتمكَّن المماليك البحريَّة وعلى عهد الناصر محمد بن قلاوون مجدداً من إيقاف زحف المغول الَّذين زحفوا إلى بلاد الشام سنة (702هـ/1303م) واصطدم معهم في موقعه مرج راهط[51]، وانتصر انتصاراً حاسماً ودانت بلاد الشام لمصر ثانياً[52]، وهدأت الحروب بين المماليك والمغول على إثر الاتفاق الَّذي عقده السلطان الناصر محمد مع سلطان المغول أبي سعيد بهادرخان (716-736هـ/1316-1335م)، واعتنق على إثرها الإسلام[53].

ويبدو الحال نفسه في الدولة الجركسيَّة (البرجيَّة) فيما زال الخطر الصليبي في المشرق الإسلامي، نجد ظهور الخطر المغولي من جديد بقيادة تيمورلنك[54]، وتولِّيه زعامة التتار الَّذي وسع رقعة دولته على حساب جيرانه، واستولى على العراق والرها في الجزيرة الفراتية، وهدد شمال الدولة المملوكيَّة وأرسل كتاباً إلى السلطان الظاهر سيف الدين بربوق مليئة بالتهديد والوعيد فسار السلطان بربوق بالجيش المملوكي، والتقى بتيمولنك في البيرة[55]، وأنزل به الهزيمة وحفظ البلاد من الخطر المغوليّ [56] .

عرف عن سلاطين الدولة البحريَّة منذ قيام دولتهم وحتَّى نهاية حكم السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة(741هـ/1340م) الورع التقوى والإيمان وانتشار الزهد وتصوف ولكن حدث تغاير في عصر أحفاد الناصر محمد إذ اشتدَّ الانحلال الخُلُقيّ في ذلك العصر فاشتهر السلاطين بالإدمان على شرب الخمر حتَّى قيل عن السلطان المنصور صلاح الدين محمد أنَّه كان لا يفيق عن السكر ساعة وعنده جوقة مغنيات نحو عشرة من الجواري، ويخلّ بالصلوات[57]، ويبدو الحال نفسه في دولة المماليك الجركسيَّة فنجد التزام السلاطين بالتقوى والإيمان والعدل في المرحلة الأُولى من دولتهم ولكن حدث التغاير في المرحلة الأخيرة من حكمهم حتَّى قيل عن حياة السلطان محمد بن قايتباي(902_904هـ/1497_1498) الماجنة الخليعة فكان المغنون والمغنيات هم رفاقه في حفلات ليلية على نهر النيل ويهاجم مماليكه الناس في الشوارع ويدخلون البيوت ليلاً ويغتصبون الأموال من الناس من دون وجه حقّ[58] .

المبحث الثاني/الوحدة في عوامل قيام الدولتين وعوامل سقوطهما وتنوعها:

أدَّى ضعف الدولة العباسية وتدهور نفوذ السلطة المركزية في بغداد عاصمة الخلافة إلى انقسام الدولة الإسلاميَّة الكبرى على نفسها , وقيام عديد من الدول والإمارات انتشرت على حسابها في المشرق والمغرب على حدٍ سواء، وأدّت هذه الدول والإمارات دوراً ما كان بمقدور الخلافة العباسيَّة أن تؤديها والخلافة في هذا الوقت كانت تعاني الانحسار المكاني والضعف الزمني الشيخوخة وغير قادرة على أداء دورها في مواجهة أعدائها، ومن بين الدول المرموقة التي عرفتها مصر والشام في تلك الحقبة من العصور الوسطى دولتا: المماليك البحريَّة، والمماليك الجركسيَّة اللتان حكمتا هذه المنطقة المهمة

من قلب العالم الإسلامي مدة تقرب من ثلاثة قرون [59] .

أولاً : عوامل قيام دولة المماليك البحريَّة ودولة المماليك الجركسيَّة :

1ـ العوامل الداخليَّة :

أـ طماح أمراء المماليك البحريَّة في الوصول إلى سدَّة الحكم خاصة بعد أن ازداد نفوذهم السياسي في الدولة الأيوبيَّة في النصف الأول من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، إذ دبَّروا مؤامرة مكنتهم من خلع العادل الثاني الأيوبي (635-637هـ/1238-1240م) وإحلال الصالح نجم الدين أيوب محلَّه في السلطة[60]، وهكذا أحسَّ الصالح نجم الدين أيوب بفضل المماليك عليه وأهميتهم في توطيد سلطانه فعنى بهم عناية فائقة جعلت نفوذهم يتضخَّم في صورة ملموسه حتَّى كان أكثر أُمراء العسكر من مماليكه البحريَّة[61]، يقابل ذلك طماح المماليك الجركسيَّة (البرجيَّة) الَّذين أضحوا على درجة من الكثر وحسن التدريب وشدَّة التماسك على عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون الَّذي سمح لهم بمغادرة أبراجهم والنزول إلى القاهرة، وأغدق عليهم المناصب العسكريَّة[62].

ب ـ كان مقتل توران شاه بن الصالح نجم الدين أيوب سنة(648هـ/1250م) إيذاناً بزوال حكم الأيوبيين في مصر وانتقال السلطة إلى المماليك البحريَّة الَّذين غدوا أصحاب السلطة الفعلية في البلاد ، وبدا ذلك واضحاً في اجماع الرأي عند أمراء البحريَّة الصالحيَّة على إقامة شجرة الدرّ أرملة أُستاذهم الراحل الصالح نجم الدين أيوب[63]، يقابل ذلك مقتل السلطان الأشرف خليل ابن قلاوون فقد غضب الجراكسة (البرجية) لمقتله وثارت ثائرتهم ولم يهدؤوا إلَّا عندما قام الأمير طقجي البرجي بقتل بيدار الَّذي نفَّذ عملية القتل، فضلاً عن غيره الأمراء الَّذين تبيَّن أنَّهم اشتركوا في هذه المؤامرة ، لذا كان من الطبيعي أن يختاروا أخا خليل، وهو الناصر ابن قلاوون[64]، وأدَّى هذا الأمر إلى زيادة نفوذ البرجية وجعلت منهم قوة يحسب حسابها، وراحوا يفكِّرون في مصالحهم قبل مصالح السلطان[65]، وفضلاً عن دور البرجية المميز في دفع خطر المغول عن بلاد الشام في معركة شقحب قرب دمشق سنة (702هـ/1302م)[66]، فقد قويت شوكتهم بديار مصر وصار لهم الحمايات[67]، الكبيرة وتردّد الناس إليهم في الاشغال[68] .

ج ـ اعترض خليفة بغداد العباسيّ المستعصم بالله، أن يتولَّى حكم مصر امرأة الَّذي قال:((إن كان الرجال قد عدمت لديكم فاعلمونا حتَّى نسير إليكم رجلاً))[69]، فتنازلت شجرة الدرّ عن الحكم لزوجها الأمير عز الدين أيبك [70]، وأجمع كبار أُمراء المماليك البحريَّة على مبايعته سلطاناً للبلاد باسم الملك المعز عز الدين أيبك التركماني سنة(648-655هـ/1250-1257م) معلناً قيام دولة المماليك البحريَّة[71]، وبالمقابل نجد أنَّ بوفاة السلطان الناصر محمد قلاوون سنة (741هـ-1340م) دخلت دولة المماليك مرحلة جديدة في تاريخها يصحّ تسميتها (عصر أبناء الناصر محمد وأحفاده)[72]، فآل المُلك إلى الصغار من آل قلاوون، فسرت الفتن في البلاد فرأى الخليفة العباسيّ والقضاة والأمراء أن يُولُّوا المُلك رجلاً قوياً ينقذ الرعاية من الفساد، وبما أنَّ أحداً لم يكن يجرؤ على منافسة برقوق الَّذي قام بخلع السلطان حاجي وتسلطن مكانة وبذلك قامت دولة المماليك الجركسية[73].

دـ كانت الجهة التي ساندت المماليك البحريَّة في الظهور على مسرح الأحداث ومهدت السبيل لهم لقيام دولتهم هم الأيوبيون (الأكراد) على عهد الصالح نجم الدين أيوب، فقد قام المماليك لأوَّل مرَّة بدور سياسي ضاغط، وأضحى المماليك الأداة الطيّعة للأمراء الأيوبيين للاحتفاظ بسلطانهم وتفوقهم ممَّا أدَّى إلى تضخّم نفوذهم السياسي[74] , أمَّا الجهة التي ساندت المماليك الجركسيَّة فلم تكن عربيَّة كذلك بل كانت من المماليك البحريَّة (الأتراك) على عهد السلطان منصور قلاوون الَّذي اتَّجه إلى تأسيس طائفة مملوكيَّة خاصَّة به تساعد في توطيد حكمه من الداخل، وتسانده في السياسة الخارجيَّة ويكون اعتماد عليها دون الطوائف المملوكيَّة الأُخرى[75]، وعند استقرائنا للكلام سالف الذكر يظهر التنوع في القيادات السياسية والإقليمية وتأكده مع الحفاظ على الوحدة في الأسس والأهداف والملامح العامة وإظهار الوجه الآخر للتنوع السياسي العرقي الَّذي ينطوي على معطيات إيجابية .

2ـ العوامل الخارجيَّة :

أـ من العوامل التي مهَّدت الطريق للمماليك البحريَّة في إقامة دولتهم استغلالهم للظروف والمتغيرات السياسية التي أحاطت بالعالم الإسلامي بعامَّة والمنطقة بخاصَّة وعلى رأسها الحملة الصليبية السابعة، حملة لويس التاسع ملك فرنسا على مصر، ودور المماليك في التصدي للصليبين والانتصار عليهم في موقعه المنصور ثُمَّ فارسكور في العالم نفسه[76]، وكذلك تصديهم فيما بعد للمغول في موقعه عين جالوت [77]، وهكذا كان هذه الانتصارات التي حقَّقها المماليك بمثابة صرخة الميلاد للدولة الجديدة ، ونقطة انطلاق لهذه للدولة الجديدة للدفاع عن العالم الإسلامي[78] , في حين لا نجد أي تأثير للعوامل الخارجيَّة في قيام دولة الجركسيَّة؛ لأنَّها تُعدُّ استمراراً للدولة الأولى(المملوكيَّة البحريَّة) في الهدف، والتركيب العسكريّ [79] .

إذاً بوسعنا القول إنَّ عناصر الوحدة في أسباب قيام الدولتين المملوكية هي : طماح أُمراء الدولتين في قيادة دفَّة الحكم بعد توافر العوامل المساعدة لذلك , فضلاً عن مقتل توران شاه بالنسبة للمماليك البحريَّة، ويقابل ذلك مقتل السلطان الأشرف خليل بن قلاوون، زيادة على ذلك اعتراض الخلافة العباسي على تولّي الحكم امرأة في الدولة البحريَّة، ويقابله رغبة الخليفة العباسي وإصراره في تولِّي الملك رجلاً قويَّاً، علاوةَ عن الجهات غير العربيَّة التي ساندت الدولتين .

أمَّا عنصر التنوع في قيام الدولتين فيمكن بتدخل العوامل الخارجيَّة في قيام دولة المماليك البحريَّة والمتمثلة بالهجمات الضاربة التي شنها الغرب الصليبيّ، واستهدفت ضربة الإسلام واتخذت من أرض مصر مسرحاً لها حيناً, ومن أرض الشام المسرح الرئيس أحياناً أُخر، وقام المماليك البحريَّة بمسؤولية الدفاع ضد هذا الخطر ، فضلاً عن تصديهم لخطر آخر أتى من الشرق وتمثَّل في غزوات المغول الَّذين داهموا بلاد الشام حتَّى وصلوا جنوب فلسطين, وتمكَّن المماليك البحريَّة من إلحاق الهزيمة به وإعادة الوحدة بين مصر والشام ، بالمقابل لا نجد أي تأثير خارجي في قيام دولة الجراكسة بل إنَّها كانت وكما أسلفنا امتداداً للدولة المملوكيَّة البحريَّة .

ثانياً : عوامل سقوط دولة المماليك البحريَّة ودولة المماليك الجركسيَّة:

لم يشهد التاريخ منذ القدم بقاء دولة ما على حال واحدة من العزة والرفعة، وإنَّما تخضع الدول لسنة الطبيعة ما بين نشأة وشباب ثُمَّ الانتقال تدريجياً إلى مرحلة الشيخوخة تتحوَّل فيها قوة الدولة ضعفاً وتدب في جسدها الأمراض التي تمهد لسقوطها، ويمكن أن نعزو أسباب انهيار دولة المماليك البحريَّة وسقوطها إلى أسباب وعوامل داخليَّة وخارجيَّة:

1- العوامل الداخليَّة :

أ- صغر سن السلاطين الَّذين تعاقبوا على الحكم بعد وفاة السلطان الناصر محمد إذ نتج عن تنصيب صبية صغار وقصر حكمهم ظهور نفوذ الأتابكة[80]، بشكل جلي وتركيز السلطة في أيديهم وتوارى السلطان في الظل ليس له من الأمر شيء[81]، ولم يكن خلفاء الناصر محمد من القوة ما يستطيعون به القبض على زمام الأمور والمحافظة على البقاء الحكم بينهم[82] .

ب - ازدياد نفوذ الأمراء وتحكمهم في مصالح البلاد وتلاعبهم بالسلاطين بالتعيين والعزل والقتل على وفق أهوائهم نتج عنها اشتداد الصراع بين الأمراء، وازدياد التنافر والعداء بين طوائف المماليك الَّذين انقسموا شيعاً يتقاتلون فيما بينهم ممَّا أغرق البلاد في بحر من الفوضى[83] .

ج - إلغاء نظام ولاية العهد بعد وفاة السلطان الناصر محمد، وطبق المماليك المبدأ الوراثي فأقيم سلاطين من بيت الناصر محمد من دون تقيد باستمرار السلطان في الحكم حتَّى وفاته, بل يصحّ خلعه إذا لم يرض الأمراء عنه وإقامة غيره[84] .

د - تدهور الأحول الاقتصادية, كان للعامل الاقتصادي أثره في سقوط دولة المماليك البحريَّة فالخزانة أصبحت خاوية بسبب الثورات والفتن الداخليَّة التي استنزفت الأموال الطائلة لغرض اخمادها، وانتقال مقاليد السلطة إلى ايدي كبار الأمراء الَّذين كانوا يعملون على ترسيخ مكانتهم في البلاد عن طريق تفريق الأموال على الفرق المملوكية بغية استمالتهم إلى جانبهم لتحقيق أغراضهم السياسية فضلاً عن انتشار المجاعات والأوبئة التي أتلفت المحاصيل الزراعية، وأضرّت باقتصاديات البلاد علاوةً عن النظام الاقطاعي الَّذي كان سائداً في البلاد[85] ولاسيَّما على عهد آخر سلاطين البحريَّة السلطان حاجي (783-784هـ/1382-1383م) فقد ضربت البلاد في عهد موجة من القحط والجفاف أهلكت الحرث والنسل[86] .

ه - اشتداد الانحلال الخُلُقي بشكل واضح على أواخر دولة المماليك البحريَّة، إذ كان السلاطين وكبار الأمراء هم مصدر هذا البلاء فاشتهروا بالإدمان على شرب الخمر، والبذخ مع الانحلال والفساد, حتَّى قيل عن السلطان حاجي آخر سلاطين البحريَّة أنَّه كان يجتمع بأوباش الناس وطبقاتهم المنحطَّة يلعبون بالحَمَام تاركاً شؤون الحكم[87] .

و- ازدياد نفوذ طائفة المماليك الجركسيَّة ازدياداً مضطرداً فاستطاع أفرادها كسب الجولة الأخيرة من الصراع الَّذي احتدم بين طوائف المماليك حتَّى انتزاع السلطنة سنة (784هـ/1382م) وتأسيس دولة المماليك الجركسيَّة، وبذلك انتهت دولة المماليك البحريَّة وانتهت أسرة قلاوون[88].

2- عوامل خارجية:

الحملة الصليبيَّة على الاسكندرية (767هـ/1365م) بقيادة ملك قبرص بطرس لوزجنان (لوزنيان)؛ لفرض حصار اقتصادي على شواطئ مصر والشام لمنع التجارة الأوربيين من الوصول بسفنهم التجارية إليها والمتاجرة مع دولة المماليك البحريَّة فتصاب تجارتهم بالكساد والبوار، ويفقدون الأساس الأول لثروتهم، وكان الاعتقاد السائد عند الصليبين أنَّ ضياع الاسكندرية سيؤدي إلى تعرّض دولة المماليك إلى الحصار الاقتصادي نظراً لأهميتها بوصفها ثغراً تجاريَّاً عالميَّاً[89]، وكان أن وصلت السفن الصليبية إلى الاسكندرية فاحتلوها وانتشرت قواتهم في شوارع المدينة يحرقون المساجد ويخربون الخانات ويدمرون المنازل وينهبون كل ما وصلت إليه أيديهم من بضائع وأموال ومن ثُمَّ انسحبوا منها[90]، وهكذا قضى الصليبيون في الاسكندرية نحواً من ثلاثة أيام كانت من أسوء الأيام في تاريخها، وقد علَّق المقريزي على ما حل بالإسكندرية جرَّاء حملة بطرس الأول بقوله:((كانت هذه الواقعة من أشنع ما مر بالإسكندرية من الحوادث ومنها اختلت أحوالها واتضع أهلها وقلت وزالت نعمهم))[91].

أمَّا عوامل سقوط دولة المماليك الجركسيَّة فيمكن أن نعزو أسبابها إلى عوامل داخليَّة وخارجيَّة:

1- العوامل الداخليَّة :

أ- تراجع زعامة المماليك في العالم الإسلامي, فبعد نجاح المماليك في مواجهة الاخطار التي تعرض لها العالم الإسلامي، تحوَّل السلاطين إلى دعاة لزعامة المسلمين، وحملوا لقب(حماة الإسلام والمسلمين) وسادت أوساطهم نزعة التفرد الديني والسياسي[92]، وبرزت قوة إسلاميَّة جديدة هي الدولة العثمانية، صارت جديرة أن تتزعَّم المسلمين وتقودهم، بينما ظهر عجز المماليك في مواجهة أُوربا المتوثِّبة، وأصبحت غير قادرة على حماية أرواح المسلمين ومدنهم ولا حتى ضمان سلامة الحج، إذ أوقف الحج لأوَّل مرَّة عام (912هـ/1506م) بصورة مؤقتة في عهد المماليك الجركسيَّة [93] .

ب - الانحلال الاجتماعي، إذ ظل المماليك على مدى ثلاثة قرون يعدُّون دولتهم طرازاً أنموذجيَّاً للمجتمع المسلم العادل المحافظ على مبادئ الشرع[94], وتغيَّر واقع الحال مع مرور الزمن وأضحى الأمر بعيداً كل البعد عن الصورة التي رسمت، إذ معظم المسلمين بدأوا منذ أواخر القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي يشعرون بتراجع دولة المماليك الجركسيَّة على الصعيد الاجتماعي، وجاهروا أن مصر أضحت بلداً لا يطبَّق مبادئ الشريعة الاسلامية[95] ، وتسابق القائمون على أُمور الدولة على سرقة أموال الخزينة وممتلكات الأوقاف، ويسرفون في تعاطي الخمر والحشيش[96]، وانتشر الجوع والتسول في كلّ أنحاء البلاد المصريَّة والشاميَّة، وأضحى فقدان المواد الغذائية في القاهرة ظاهرة مستديمة[97]، فانفض كل فئات الشعب عن الحكومة وأصبحوا ينتظرون إليهم نظرة مغتصبين وفاسقين وعُدَّت ممارسة الوظيفة العامة عاراً، وعمت مشاعر الاستياء ضد السلاطين من فئات المجتمع كافة[98].

ج - انعزال المماليك عن المجتمع، إذ كونوا مجتمعاً مغلقاً خاصاً بهم فلم يختلطوا بالناس بل ظلُّوا بمعزل عنهم، وتحفظوا على جنسهم ولغاتهم وعاداتهم وتقاليدهم واستمروا يتحدَّثون التركية شرطاً أساسيَّاً لاعتلاء الحكم أو الوظائف الحكومية وانحصر زواجهم بالنساء التُركيات أو بنات الأمراء نادراً ما اقترنوا بالنساء المصريات أو الشاميات، وظلُّوا منعزلين عن

المجتمع ولم تنشأ أواصر بين الحاكم والمحكوم[99]، وانقسم المماليك إلى أحزاب وشيع لكل حزب زعيم، وكان المملوك في بداية العهد المملوكي شديد التمسُّك بالسلطان أو الأمير الَّذي اشتراه كثير التقيد بحزبه وأسرته حتَّى بعد وفاته, لكن الأمر تغيَّر في أواخر الدولة الجركسيَّة فكان النزاع الَّذي يقع بين الأحزاب المختلفة سبباً في تعكير صفو الإدارة الحكومية[100]، ثُمَّ إنَّ رفض مبدأ الوراثة جعل الصراع على السلطة مشاعاً للجميع, فزاد من نشاط الأمراء الطامعين الَّذين انتهجوا الثورات والانقلابات للوصول إلى الحكم ممَّا خلق حالة من الفوضى وعدم الاستقرار, وفتح باب الصراعات أمام الأمراء الأقوياء للوثوب إلى العرش[101].

د- فساد النظام الإداري والعسكري : بدأ التنظيم الإداري والعسكري المملوكي يفقد تأثيره ومكانته تدريجياً في الدولة الجركسيَّة، وأساء الأمراء استعمال الصلاحيات الواسعة التي منحت لهم، ولم يتقيَّد السلاطين أنفسهم بهذه الصلاحيات، وظهرت بذور الفساد مع حكم سلاطين صغار وضعفاء وتنامي أطماع الأمراء الأقوياء على حساب السلاطين الضعفاء مثل: أمير الأخور الكبير[102]، وأمير السلاح، وأتابك العساكر الَّذين فرضوا سيطرتهم على الخيل والسلاح والجيش وأفقدوا السلاطين قدرتهم على الإدارة وفرض الحكم السياسي والعسكري[103]، وأُصيب الإدارة بالفساد، لاسيَّما الماليَّة منها, فأضعف السلاطين والأمراء منصب الوزارة، وتشتَّت صلاحيات الوزير على منصب الاستادارية[104]، وأضحى الاستادار أعلى رتبة من الوزير, وفرض ضرائب استثنائية وتسلطوا على التجارة، وانتشر الفساد في الإدارة والجيش وباقي القطاعات[105].

هـ - فساد النظام الإقطاعي : تميز العصر المملوكي بظاهرة الاقطاع في المؤسسة الاجتماعية والاقتصادية واتبعت السلطنة سياسة جديدة في توزيع الاقطاعات والعقارات، فبعد أن كانت وراثية، ثُمَّ تحوّل إلى إقطاع شخصي غير وراثي، وُزّعت الأراضي للأُمراء والأجناد من جديد، وبشتَّى أنواع الاقطاعات والأراضي[106], ودخلت السلطنة في هذا النظام الاقطاعي طوراً جديداً لتوطيد سلطتها وعدم اهتمام الأمراء بإقطاعاتهم؛ لأنَّها غير وراثية واعتمدوا على الرواتب النقدية والعينيَّة، وعجز الدولة عن دفع النفقات العسكريَّة واضطر السلطان إلى فرض المزيد من الضرائب[107]، ولما كان الجيش في عصر المماليك يعتمد في نظامه على الاقطاع فقد أدَّى فساد النظم الإقطاعية في الدولة الجركسيَّة إلى ضعف الجيش، وانهيار دعائمه[108].

و- التدهور الاقتصادي : اعتمدت الدولة المملوكيَّة بجناحيها البحريّ والجركسيّ, على الاقتصاد بنية أساسيَّة, وعندما شهد الضعف كان إيذاناً بالانحلال والضعف ثُمَّ الانهيار فقد استندت الدولة المملوكيَّة الجركسيَّة على التجارة والزراعة أساس الاقتصاد والاستقرار والقوة، وشهد التدهور الاقتصادي بداية اعتلاء السلطان قايتباي عرش السلطنة سنة(872هـ/1468م) إذ أخذ الانحلال الداخلي وعدم قناعة الأمراء بالسلاطين، ثُمَّ عدم طاعتهم أو قناعته بإقطاعاته وتدهور المماليك في معاملتهم ونهب أموالهم، وممتلكاتهم، والثورة المستمرة من حين لآخر من الأُمراء ضد السلطان بحجَّة عدم كفاية الأموال أو من الأهالي، والعامَّة ضد الأمراء بسبب القسوة والعنف والاضطهاد[109]، وقد عبث المماليك بكلّ شيء، حياة الناس وحرمهم، ومكانة الفقهاء والعلماء وهيبتهم، وحدث في عام(921هـ/1515م) عندما نُودّي في العسكر بالخروج لمواجهة العثمانيين أن نزل المماليك من القلعة، وأطلقوا النار على الناس، وأخذوا بغال القضاة والعلماء والتجار، وهجموا على الحارات والبيوت، وأنزلوا الفقهاء عن بغالهم في وسط الأسواق، وأخذوها من تحتهم[110]، وكان من الطبيعي أن يترك هذا التصرُّف أثره في الحالة الاقتصادية، فأغلقت الطواحين وفقد الخبز من الأسواق وكذلك الدقيق، وعم القحط بين الناس، واختفى أصحاب الحرف والتجارة واضطربت أوضاع القاهرة، وفقد الأمن الَّذي يشكِّل أساساً الاستقرار الاقتصادي[111]، هذه العوامل فضلاً عن بذخ السلاطين والإنفاق الزائد، وكذلك فرض الضرائب والمكوس على التجارة وجمع خراج الأرض من الفلاحين قبل استحقاقه ، وقبل جمع المحصول... ناهيك على أنَّ النظام المملوكي فقده أُسسه وركائزه وأهمل وعمَّت الفوضى وعدم الاستقرار، وبدأ السلاطين بجلب مماليك كبار لم يتدرَّبوا أخلاقيَّاً أو دينيَّاً أو عسكريَّاً مثل المماليك الأوائل، وشبُّوا منذ الصغر على أُسس غير المتعارف عليه عند المماليك, كلُّ هذه العوامل ساهمت في الانهيار الاقتصادي في الدولة المملوكيَّة الجركسيَّة، وإضعاف الدولة، والدفع بها إلى الانهيار والسقوط[112].

2- العوامل الخارجيَّة :

تُعدُّ العوامل الخارجيَّة من ضمن المسبّبات لضعف دولة المماليك الجركسيَّة بل ساعدت العوامل الداخليَّة السالفة الذكر في إضعاف وحدة الدولة أمام العدو الخارجي، وأدَّى الانشقاق الداخلي في صفوف المسلمين في العالم الإسلامي إلى إضعاف المجتمع الإسلامي تجاه العدو الخارجي، كما إنَّ النزاع الديني الَّذي أعاق علاقات الشرق بالغرب أخذ يتفاقم من جديد في أواسط القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، وظلَّت الصليبيَّة الغربيَّة المتجدّدة العدو الرئيس للإسلام والمسلمين، وعليه فإنَّ أهم العوامل الخارجيَّة التي ساهمت في سقوط دولة المماليك الجركسيَّة وهي كما يأتي:

أ- الحملات العسكريَّة الصليبية التي قادها البرتغاليون الَّذين استجابوا لنداء البابوية ونظموا حملات منذ عام (818هـ/1415م) ضد شمال أفريقيا واكتشافهم طريق رأس الرجاء الصالح ووصولهم بحراً إلى الهند وضرب السفن المملوكية فيها وقضائهم على التجارة المملوكية في الشرق الأقصى بعد أن سدّوا منافذ المحيط الهندي والخليج العربي بأساطيلهم[113]، كانت بمثابة الكارثة للدولة الجركسيَّة، التي قضى عليها البرتغاليون من حيث الثروة والقوى العسكريَّة[114].

ب - الضربة الثانية التي قضت على الدولة المملوكية الجركسية نهائياً جاءت على أيدي العثمانيين مع ما بين الطرفين البرتغالي والعثماني من تباعد، إلَّا أنَّهما اتحدا بالهدف وأنهى السلطان سليم الأوَّل العثماني(918-926ه/1512-1520م) دور المماليك الفعال في معركة(مرج دابق)[115]، ثُمَّ قضى على دولتهم المستقلة في معركة (الريدانية) بالقرب من القاهرة، في التاسع والعشرين من ذي الحجة سنة (922ه/1517م) وورث مملكتهم وألقابهم ليكون حامي الإسلام والمسلمين، وتبدأ صفحة جديدة من التنوع السياسي الإيجابي في الدولة الإسلاميَّة[116].

وإذا ما وقفنا عند عناصر الوحدة في سقوط الدولتين نجد أنَّ العوامل الداخليَّة أدَّت دورها في الدولتين متمثِّلة

بتولِّي سلاطين ضعفاء في الحقبة الأخير من عمر الدولتين وازدياده نفوذ الأمراء واستبداد سطوتهم، وتحكُّمهم في مصالح البلاد، فضلاً عن سوء الإدارة والانحلال الخُلُقي لسلاطين الدولتين، وتعاطيهم المحرمات والابتعاد عن تطبيق الشرع الإسلامي، ناهيك عن التدهور الاقتصادي الَّذي يُعدُّ من العوامل الرئيس في سقوط الدولتين في حين نجد أنَّ عناصر التنوع والاختلاف تدخل في بقية العوامل الداخليَّة .

أمَّا على صعيد العوامل الخارجيَّة فنجد عناصر الوحدة في إضعاف وسقوط الدولتين تتمثل بالحملات الصليبيَّة الموجهة ضد الدولتين إذ كانتا مركز الخلافة الإسلاميَّة، ولأجل إضعاف الدولتين عملوا على ضرب تجارة الدولتين ويفقدون بذلك الأساس الأوَّل لثروتها؛ لأنَّ الدولة المملوكيَّة، بشقيها البحريّ والبرجيّ، كانت تستمدّ ثروتها وقوتها من احتكار التجارة بين الشرق والغرب، تلك الحملات التي كانت تمثِّل الحلقة الأخيرة للحملات الصليبيَّة الموجهة ضد العالم الإسلاميّ .

أمَّا عناصر التنوع في العوامل الخارجيَّة التي أدَّت إلى سقوط الدولتين, فنجد أنَّ الدولة البحريَّة سقطت على يد قرينتها الدولة الجركسيَّة التي تُعدُّ امتداداً لها، في حين نجد أنَّ الدولة الجركسيَّة سقطت على أيدي الدولة العثمانية وبسقوطها، انتهت سلطنة المماليك لتظل مصر والشام بضعة قرون تحت السيادة العثمانية، وليتحقق قول الله سبحانه وتعالى: ((...وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ))[117]، وتُعدُّ هذه الحالة قمة الوحدة السياسيَّة الايجابيَّة وتنوعها؛ لأنَّ العثمانيين جاؤوا في الوقت المناسب بعد أن استنفذ المماليك طاقتهم وقدراتهم العسكريَّة نتيجة للصراعات الداخليَّة بالدرجة الأولى حتَّى قبل اكتشاف رأس الرجاء الصالح وتحول خطوط التجارة العالمية التي كانت تمر مصر والشام وهي أراضي مملوكية تدرّ عليها موارد كبيرة مكنتهم من الاستمرار والقوة، وهذا انتهت باكتشاف رأس الرجاء الصالح، أو الضعف إلى حدٍّ كبير، قبل هذا كان الصراع الداخلي بين المماليك أنفسهم الَّذين كانوا دمويين بمعنى الكلمة، فليس ثمَّة سلطان يأتي إلى الحُكم إلَّا في أعقاب قتل السلطان الَّذي سبقه بعمليات تصفية دمويَّة متواصلة أضعفتهم إلى حدٍّ كبير. ولمَّا جاء العثمانيون بهذه القدرات الشابَّة تسلَّموا السلطة وملؤوا الفراغ المطلوب وحموا وحدة الأرض الإسلاميَّة من التفكيك, وجابهوا التحديات الأُوربيَّة لا بل تفوَّقوا عليها باختراقهم العمق الأوربي، والوصول إلى (فينا), خُلاصة القول إنَّ الدولة المملوكية كانت قد سقطت قبل أَن تسقط تحت سنابك الخيول العثمانيَّة .

المبحث الثالث/ الوحدة في السياسة الداخليَّة والخارجيَّة لكلا الدولتين وتنوعها:

1- السياسة الداخليَّة: تميَّزت السياسة الداخليَّة للدولة المملوكيَّة بجناحها البحريّ الجركسيّ بجهود السلاطين في توطيد أركان حكم دولتهم بالتصدّي للحركات والثورات المناوئة لحكمهم متمثلة بـــ :

أ- جهود السلاطين في القضاء على المعارضة الأيوبيَّة وكان من الطبيعي أَن يقف الأُمراء الأيوبيين في بلاد الشام موقف العداء للدولة البحريَّة، والواقع أنَّ الأُمراء الأيوبيين الَّذين ظلُّوا يعتقدون أنَّهم أصحاب الحق الشرعي في حكم مصر وبلاد الشام بوصفهم من سلالة صلاح الدين الأَيوبيّ، وأنَّ ما جرى يُعدُّ خروجاً للسلطنة في مصر على البيت الأيوبيّ لذلك رفضوا حلف اليمين للسلطانة الجديد -شجرة الدرّ- وشاركهم بعض الأُمراء المماليك في بلاد الشام[118]، فقد رفض المماليك (القيمريَّة)[119]، في دمشق قسم يمين الولاء والطاعة للسلطانة الجديد وشاركهم بعض الأُمراء الصالحيَّة في بلاد الشام، فتضعضعت الأوضاع في بلاد الشام ولم يلبث أن التهب الموقف، وبدى واضحاً أنَّ الأُمراء الأيوبيين سيتخذون موقفاً متصلِّباً من التطورات الجديد في مصر[120]، وبذلك خرجت بلاد الشام من قبضة المماليك وانقسمت الجبهة الإسلاميَّة التي وحَّدها صلاح الدين الأَيوبي وأخيه العادل مرَّة أُخرى, فأَضحت مصر في يد المماليك وبلاد الشام تحت سيطرة الأيوبيين[121]، واستمرت الحالة حتَّى معركة عين جالوت فانتهت الزعامة الأيوبيَّة تماماً على بلاد الشام واستطاع المماليك توحيد مصر والشام في دولة واحدة[122] .

ب - ثورات القبائل العربية ضد حكم المماليك البحريَّة، وجدت في مصر في العصور الوسطى قبائل عديدة من العرب (البدو) وهؤلاء انتشروا في أجزاء مختلفة من البلاد وكان هؤلاء البدو دائماً مصدر فتن ومتاعب للحكَّام والمحكومين سواء[123]، وقد حاول السلطان المُعز أَيبك أَن يحدِّد من قوة البدو في مواجهة قوة الأُمراء الأيوبيين المناوئين لحكم المماليك البحريَّة، ولكن البدو أنفوا من الخضوع للمماليك وثارت قبيلة بني تغلب، وهي أقوى قبائل العرب في الصعيد ونادى زعيمها حصن الدين بن ثعلب: " أنا أَحقُّ بالملك من المماليك وقد كفى أنَّا خدمنا بني أيوب وهم خوارج خرجوا عن البلاد "[124]، وهكذا أَعلن حصن الدين بن ثعلب نفسه ملكاً على الصعيد, ولكن السلطان أَيبك أَرسل جيشاً ألحق الهزيمة بالعرب البدو وأخضعهم سنة (650هـ/1253م)[125] .

ومن الواضح أنَّ العرب (البدو) في مصر كانت تراودهم في أوائل عصر المماليك فكرة إقامة سلطنة عربية يكون الحكم فيها للعرب، وإذا كان تطوُّر الأحداث قد أثبت لهم استحالة تنفيذ هذه الفكرة بعد أن ثبتت دعائم سلطنة المماليك فإنَّ ذلك لم يمنع العرب (البدو) من المشاركة في الأحداث السياسية الجارية حسبما تطلَّبت مصالحهم، وكانت معظم حركاتهم تظهر عند قيام سلطان جديد أو أثناء حكم سلطان قاصر وهي أَوقات الاضطراب عادة في تاريخ دولة المماليك البحريَّة[126] .

استمرت ثورات البدو ضد سلاطين الدولة البحريَّة حتَّى تمكَّن السلطان ناصر محمد بن قلاوون من كسر شوكتهم سنة (701هـ/1301م)، ولم تُعدّ حركات البدو تتخذ شكلاً سياسيَّاً، وإنَّما اتخذت صوراً اقتصادياً, وهو ما تسميه المراجع عادة باسم (فساد العربان) وهكذا أخذ البدو في القرنيين الثامن والتاسع الهجريين/ الرابع والخامس عشر الميلاديين يتطرَّفون في نهب الغلال وسلب المواشي، ويدفعهم الضيق الاقتصادي إلى الامتناع عن دفع الخراج والضرائب المقررة عليهم[127]، وظل العرب (البدو) طوال عصر المماليك بشقَّيها البحريَّة والبرجيَّة مصدراً مهمَّاً من مصادر الفتنة والقلاقل وعدم الاستقرار .

ج - جهود سلاطين المماليك في التصدي للثورات التي عصفت ببلاد الشام في العصر المملوكي بشقيها البحري والجركسي : إذ لم تكن بلاد الشام في عصر المماليك مجرَّد إقليم من أقاليم الدولة إنَّما كانت أهم من ذلك بكثير، لقد كانت الجناح الأيمن الَّذي من دونه يتعذَّر على دولة الاحتفاظ بكيانها وتوازنها، والثبات في وجه الأَخطار الضخمة التي هدَّدت تلك الدولة من جانب الأيوبيين والتتار والصليبيين ومن جانب الأرمن والتركمان ثُمَّ العثمانيين أحياناً أُخر, وهكذا أدرك سلاطين المماليك

منذ أقاموا دولتهم من مصر أنَّه لا بقاء لهم ولا لدولتهم إلَّا في ظل وحدة تربط بين الشام ومصر تحت حكمهم وتضمن لهم مراقبة التيارات العديد التي يمكن أن تؤثر في كيانهم فضلاً عن مراقبة الطرق الرئيس التي سلكها الأعداد في تهديدهم لمصر والشام في العصور الوسطى[128]، وإذ كان سلاطين المماليك قد نظروا إلى بلاد الشام نظرة خاصة فإنَّنا نلاحظ في الوقت نفسه أنَّ نوَّاب الشام وأمراء المماليك في تلك البلاد أدركوا أهميتها، واستغلُّوا موقع البلاد من ناحية وبعدها عن مركز السلطنة من ناحية أُخرى في محاولة فرض إرادتهم وإملاء كلمتهم على السلاطين وكثيراً ما أحسَّ أُمراء المماليك في الشام بنفوذهم وقوتهم فأعلنوا الثورات في وجه السلاطين في مصر[129].

ومع قيام دولة المماليك وكما أسلفنا انطلق أوَّل صوت للمعارضة من دمشق، فقد رفض القيمريَّة أن يُقسِّموا يمين الولاء للسلطانة شجرة الدرّ، واستمر الحال إذ في سلطنة المماليك لم تمتد على بلاد الشام إلَّا بعد موقعة عين جالوت، كما سبق أن رأينا ومنذ تلك السنة أصبحت المتاعب التي صادفها سلاطين المماليك في بلاد الشام لا تأتي من جانب الأيوبيين والتتار والصليبيين فحسب، بل من جانب أمراء المماليك أنفسهم بالشام, ومن ذلك أنَّ الأمير علم الدين سنجر الحلبي (ت:692ه/1292م) نائب قطز على دمشق ثار في وجه السلطان الظاهر بيبرس (658هـ/1260م) بعد شهر واحد من توليه السلطنة ، ولكن أخمد حركته [130].

ولمَّا اعتلى المنصور قلاوون دفَّة السلطنة سنة (678هـ/1279م) خرج عليه شمس الدين سنقر الأَشقر(ت:692ه/1292م)، نائب الشام وامتنع عن مبايعته، وفي أثناء النزاع بين السلطان قلاوون لم يرَ الأَخير حرجاً في الاتصال بالتتار وتحريضهم على مهاجمة بلاد الشام[131], وحدث سنة (680هـ/1281م) والسلطان قلاوون مشغول بمحاربة الصليبيين أن دبَّر الأمير سيف الدين كوندك[132]، وجماعة من الأمراء الظاهرية وبعض التتار مؤامر لاغتيال السلطان، ولم يتردَّد المتآمرون في الاتصال بالصليبيين، ولكن المنصور قلاوون علم بالمؤامرة في الوقت المناسب فأحبطها وأعدم زعمائها[133]، وحدث في عهد السلطان الصالح بن قلاوون (752-755هـ/1351-1354م) أن خرج عن طاعته معظم نوَّاب الشام مثل نائب حلب ونائب طرابلس ونائب حماه وغيرهم، وبذلك لم يبقَ على طاعة السلطان سوى أرغوان الكاملي(ت:758ه/1356م) نائب دمشق[134].

واستمرت بلاد الشام في عصر دولة المماليك الجركسيَّة أيضاً مسرحاً لكثير من الثورات والحركات التي قام بها بعض الأُمراء ضد السلطنة ففي الأَحداث التي أدَّت إلى انتقال الحُكم من المماليك البحريَّة إلى المماليك الجراكسة نسمع كيف ثأر الأمير طشتمر الدوادار(ت:786 هـ/1384م) [135]، نائب دمشق[136]، ثُمَّ كان نجاح برقوق في القضاء على السلطنة الترك وإقامه دعائم دولة المماليك الجركسيَّة سنة (784هـ/1382م) ليجعل بلاد الشام مسرحاً جديداً للنزاع بين المماليك الترك، والجراكسة وهو في الحقيقة الأَمر صراع حول السلطنة[137].

ولم يلبث الأَمير يلبغا الناصري[138]، أن أَعلن ثورته علناً على السلطان في حلب، فاستمال منطاش[139] إليه، وسيطر على شمال الشام, وفي ذلك الوقت جاءت الأخبار إلى سلطان برقوق من دمشق أن بعض الأُمراء الترك في الشام هاجموا طرابلس، وقتلوا من فيها من أُمراء موالين لبرقوق[140]،ولم تكد تنتهي سنة (792هـ/1389م) حتَّى كان معظم نيابات الشام، فيما عدا دمشق وبعلبك والكرك، قد دخلت في طاعة يلبغا الناصري[141], وبعد صراع مرير استطاع برقوق في توطيد نفوذ بالشام، وإن كان ذلك لم يتم إلَّا بعد أَن غدت بلاد الشام مسرحاً لصراع مرير بين يلبغا الناصري ومنطاش سنة (794هـ/1391م) ممَّا أثَّر تأثيراً سيئاً في أوضاعها الاقتصادي[142].

وهكذا ظلَّت بلاد الشام مسرحاً لكثير من الفتن والمؤامرات والثورات طوال عصر المماليك البحريَّة والجركسيَّة واستعمل السلاطين أبشع أَنواع الاضطهاد ضد المتآمرين فقد كانوا دمويين بمعنى الكلمة فبدراسة تراجم أربعة وسبعين نائباً لنيابة دمشق في عصر المماليك بشقيها البحريّ والبرجيّ، يتبيَّن أنَّ تسعة وعشرين منهم خرجوا عن السلطنة وأعلنوا الثورة، واستطاع اثنان منهم – هما لاجين وشيخ – أَن يصلا إلى السلطنة، وتمكَّن اثنان من الهرب إلى خارج الدولة، وحصل خمس على عفوا السلاطين، وسجن خمسة، ثُمَّ أفرج عنهم في حين أعدم خمسة عشر[143], ولقد ساهمت هذه الثورات والمؤامرات والفتن في إضعاف قدرات المماليك الاقتصادية والعسكريَّة الأمر الَّذي جعل منهم فريسةً سهلة للعثمانيين.

د ـ كثيراً ما كانت تشتعل الثورات المفاجئة في العاصمة القاهرة، ولم تلبث أن تمتدّ أحياناً إلى بعض أنحاء البلاد والمدن الكبرى فتحوّل تلك الصورة الهادئة التي اتَّصفت بها معظم المدن المصرية إلى صورة مضطربة قائمة[144]، ومعظم الثورات والفتن كان مصدرها المماليك أنفسهم، ولا شك في أنَّ عدم وجود قاعدة معينة ثابتة لاختيار السلاطين في عصر المماليك، وتطلُّع كبار الأمراء دائماً للوصول إلى منصب السلطنة أدَّى إلى كثير من الفتن والثورات والاضطرابات التي شهدتها الدولتين؛ لذا فإنَّنا نستطيع أن نقرر أنَّ معظم القلاقل والفتن التي شهدها عصر المماليك في مصر والشام إنَّما كان مصدرها رغبة الطامحين من الأمراء في الوصول إلى قمَّة الهرم المملوكيّ الكبير، واحتلال دفَّة السلطنة، وكان يكفي أن يرجف بوفاة سلطان، أو مرضة، أو هزيمة جنود حتَّى تضطرب أحوال البلاد[145].

وخلاصة القول إنَّ السياسة الداخليَّة للدولتين البحريَّة والجركسيَّة تميزه بتغلب العناصر الوحدوية متمثِّلة بجهود سلاطين الدولتين بالتصدي للحركات والثورات المناوئة لحكمهم بالتصدِّي للثورات التي عصفت ببلاد الشام ومصر, ثُمَّ يبرز عنصر آخر من عناصر الوحدة بين الدولتين في هذا الشأن وهي أنَّ معظم الثورات والفتن السياسية التي شهدتها البلاد في عصر المماليك بشقيها البحريَّة والجركسيَّة كان مصدرها طوائف المماليك أَنفسهم، لاعتقادهم بالنظرية القائلة: إنَّ جميع المماليك لهم حقٌّ مشروع في السلطنة مهما قل رتبتهم أَو صغر شأنهم، والجميع كانوا يتطلَّعون إلى اليوم الَّذي يستأثرون بالسلطنة .

بالمقابل نجد أنَّ عنصر التنوع والاختلاف في السياسة الداخليَّة لكلا الدولتين يكمن في بروز المعارضة الأيوبيَّة المناوئة لحكم المماليك البحريَّة في بلاد الشام، حين لا نجد لها أثراً في دولة الجركسيَّة؛ لأنَّ السلطان الظاهر بيبرس قد تخلَّص من الأيوبيين المناوئين لحكم المماليك البحريَّة وأنهى الزعامة الأيوبيَّة تماماً على بلاد الشام بعد أن كانت انتهت في الديار المصريَّة .

2- السياسة الخارجيَّة :

استطاعت دولة المماليك التي قامت في مصر والشام أن تثبت أنَّها دولة مترامية الأطراف، وأنَّها أعظم قوة في العالم الإسلامي آنذاك، فنظر إليها حكَّام الدولة الإسلاميَّة وشعوبها نظرة إكبار وإجلال، في حين نظر إليها القوي خارج المحيط الإسلامي نظرة خوف واحترام وحسب دولة المماليك أنَّها استطاعت أن تواجه الأخطار الخارجيَّة التي هددَّت المشرق الإسلاميّ في شجاعة وبأس فحمت الشام ومصر من خطر التتار المغول ونشر الإسلام بين المغول القفجاق (القبيلة الذهبيَّة)، وعقدوا معها الاتفاقيات السلميَّة، وطردت الصليبين كليَّاً من أرض الشام بل لاحقتهم في مراكزهم القريبة مثل: أرمينية الصغرى، وقبرص، ورودس، فضلاً عن الحروب الدبلوماسية وهي الاتفاقات السلميَّة التي وقعوها مع البيزنطيين ومع دول مدن إيطاليا، وجزر البحر المتوسط، وذلك ردَّاً على محاولات المغول في تشكيل حلف هجوميّ مغوليّ صليبيّ ضد المماليك، ولولا هذه المعاهدات التي أبرمت في الوقت المناسب لأطبق المغول والصليبين على المسلمين [146]، وهكذا فإنَّ دولة المماليك ولاسيَّما البحريَّة لم تكن دولة ضعيفة في مواجهة الأخطار الخارجيَّة، وتوطيد العلاقات مع القوى السياسيَّة في العالم التي أطلت برأسها منذ تأسيس دولتهم التي بلغت الذروة على عهد السلطان الناصر محمد الَّذي مد النفوذ الخارجيّ لسلطان مصر امتداداً واسعاً فكان هو يعين أشراف مكة, وأرسل محمد بن تغلق سلطان الهند الإسلاميَّة سنة (731هـ/1331م) بعثتين إلى السلطان الناصر للحصول على مساعدته ضد المغول الَّذين اشتدَّت غاراتهم حينئذٍ على الهند ولم ينقطع على بلاط الناصر محمد سفراء الدولة البيزنطيَّة طالبين مساعدته ضد التركمان الَّذين أخذ نفوذهم يزداد في آسيا الصغرى وكلّ هذا هو معنى قول المؤرخ ابن إياس:((أنَّ الناصر محمد بن قلاوون خطب له في أماكن لم يخطب فيها لأحد من الملوك وكاتبه سائر الملوك وهادوه وهابوه)) [147].

وهكذا غدت العاصمة القاهرة في عصر سلاطين المماليك البحريَّة والجركسيَّة قبلة الأصدقاء والأعداء جميعاً، فالأصدقاء يطلبون تأييدها، وينشدون مساعدتها، والأعداء يبغون ملاطفتها ومسالمتها، أو مهادنتها اتقاءً لبطشها، وبين هذا وذاك من التيارات السياسية ظهر تيار التجارة والمال أشد ما يكون قوة وانطلاقاً في ذلك العصر؛ ليجعل التجارة والسفراء يتردَّدون على مصر بين الفينة والأُخرى، ويبغون عقد اتفاقية تجارية أو إلغاء مكس، وبذلك شهدت القاهرة نشاطاً دبلوماسياً ضخماً في عصر المماليك، وصارت مركزاً لشبكة واسعة من العلاقات الخارجيَّة مع الدول الصديقة وغير الصديقة، ولا نبالغ إذا قلنا: إن ديوان الإنشاء[148] في عصر المماليك بجناحيها البحريَّة والجركسيَّة، غدا يمثل أضخم وزارة خارجية شهدها العالم أجمع في ذلك العصر[149] .

إذاً وبعد أن قمنا بعرض للركائز الأساسية الخارجيَّة للدولتين, إذ يضيق بنا المقام عن تتبع علاقات المماليك مع القوى السياسية في المشرق والمغرب الإسلامي، وماهية هذه العلاقات بصورة دقيقة وتفصيليَّة، يتَّضح أنَّ عناصر الوحدة في السياسة الخارجيَّة للدولتين البحريَّة، والجركسيَّة تتلخّص في ثلاثة محاور: الدفاع عن أرض الإسلام في مواجهة الأعداء المتربصين، متمثِّلة بجهود سلاطين الدولتين في التصدي للمغول التتار والصليبيين وكبح جماحهم ، وإجلائهم عن مصر والشام ، فضلاً عن نشر الإسلام في بيئات جديدة، كنشره بين المغول القفجاق (القبيلة الذهبية) بعد أن اعتنق رئيسهم بركة خان الإسلام، الأمر الَّذي ترتب عليه ازدياد أواصر التقارب والصداقة بين المغول القفجاق والقوى الإسلاميَّة المجاورة ولاسيَّما دولة المماليك من ناحية، وازدياد العداء والتنافس بين المغول القفجاق المسلمين وبقية طوائف المغول الوثنيين ولاسيَّما مغول فارس من ناحية أُخرى، والمحور الثالث: هو إضافة معطيات جديدة إلى بيئة الحضارة الإسلاميَّة لا غنائها بالمزيد من المعطيات، وتجسّدت بتشجيع أغلب سلاطين مماليك الدولتين للعلم والعلماء وعقد المجالس العلميَّة الدينية، وقد وصف ابن تغري بردي السلطان الظاهر بيبرس أنَّه :((كان يميل إلى التاريخ وأهله ميلاً زائداً ويقول سماع التاريخ أعظم من التجارب))[150] , وهكذا عاد الجامع الأزهر في عهد المماليك إلى سابق عهده قصبة لطلاب العلم في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، وسار على هذا المنهج معظم سلاطين الدولتين حتَّى صارت مدن مصر والشام من أبرز المراكز الحضارية في العالم آنذاك .

الخاتمة : بعد هذا العرض لعناصر الوحدة والتنوع بين دولتي المماليك البحريَّة والجركسيَّة وبعد الوقوف على الجوانب السياسية لهذه العناصر نصل إلى تقديم أهم النتائج التي توصَّل إليها البحث في هذين الجانبين من عناصر وحدويَّة وتنوعيَّة بين الدولتين وكما يأتي:

1- نشأة كلا الدولتين في بيئة عربية واحدة، على الرغم من أنَّ سلاطين الدولتين كانوا غير عرب وكان موطنهم الأَصلي مناطق القفجاق، والبحر الاسود وكانوا من المماليك البيض وجلبوا عن طريق التجار إلى أَسواق النخاسة في مصر وبلاد الشام، إلَّا أنَّ كونهم عاشوا في بيئة إسلامية واعتنقوا الدين الإسلامي، فحال تسلمهم السلطنة سعوا إلى إحياء الخلافة العباسية؛ لإعطاء الصفة الشرعيَّة لحكمهم، على الرغم من أنَّ سلطة الخليفة أَصبحت إسميَّة، فعنصر الوحدة في علاقة سلاطين الدولتين بالخليفة العباسيّ تتمثَّل في كون الخليفة العباسي في القاهرة لم يكن إلَّا مظهراً خدَّاعاً لا يُعدّ إلَّا ذراً للرماد في العيون حتّى يقضوا على رغبات الطامعين في ملك مصر والشام .

2- الوحدة في قوة شخصية مؤسسي الدولتين: السلطان الظاهر بيبرس الَّذي يُعدّ المؤسس الحقيقيّ للدولة المماليك لما قام به من انجازات التي تمثَّلت بإلحاق الهزيمة بالصليبيين، وإنهاء الاحتلال الصليبيّ في بلاد الشام، وسحق المغول في موقعة عين جالوت، وإعادة الوحدة بين مصر وبلاد الشام- إذ كان بلاد الشام خط دفاع بالنسبة للماليك ومسرح حروبهم- ومد نفوذ دولته خارج البلاد المصريَّة والشاميَّة، ويقابله قوة شخصية السلطان برقوق الجركسي الَّذي أسَّس دولة المماليك الجركسيَّة في مصر وبلاد الشام، وقام بإسقاط دولة المماليك البحريَّة، وجهز الجيوش لمحاربة التتار الَّذين حاول احتلال بلاد الشام، ولا يقتصر عنصر الوحدة على شخصية مؤسس الدولتين، وإنَّما تجاوز ذلك في عدد سلاطين الدولتين الَّذين تولّوا دفَّة السلطنة والتقارب في عمر الدولتين.

3- التنوع في نسب سلاطين الدولتين فالمماليك البحريَّة كانوا من الأَتراك في حين كان المماليك البرجية من الجراكسة .

4- اعتمدت النظرية السياسية للحكم المملوكي على الصبغة الدينية للحكم، وذلك بتحالف المماليك مع علماء الدين الإسلامي، وإظهارهم التمسك بالدين، وبالأماكن المقدسة، والاهتمام بالعلم والعلماء، وتشجيعهم واستقطابهم للعلماء، والإكثار من الأبنية التعليميَّة والدينيَّة

5- عرف سلاطين الدولتين بالتقوى والإيمان والعدل في المرحلة الأُولى من قيام دولتهم ولكن حدث التغير في المراحل الأَخير في حكمهم إذ اشتدَّ الانحلال الخُلُقي واشتهر سلاطين ذلك العهد بالإدمان في شرب الخمر، والاخلال بالصلوات وعاشوا حياة المجون .

6- الوحدة في قيام الدولتين، متمثِّلة بطماح أُمراء الدولتين في قيادة دفَّة الحكم بعد توافر العوامل المساعدة لذلك، فضلاً عن اعتراض الخليفة العباسي في بغداد أن يتولى الحكم امرأة في الدولة البحريَّة ويقابله رغبة الخليفة العباسي وإصراره في القاهرة في تولِّي الحكم رجلاً قوياً بعد أن آل الحكم سلاطين صغار، علاوةً عن الجهات التي ساندت الدولتين في القيام وهما: الأَكراد بالنسبة للبحريَّة، والأتراك للجركسيَّة

7- التنوُّع في بعض العوامل التي مهَّدت لإقامة الدولتين ومتمثلة بالهجمات الضاربة التي شنها الغرب الصليبي، وغزوات المغول الوثنيين الَّذين داهموا بلاد الشام، وتصدي المماليك البحريَّة للقوتين، وألحقا الهزيمة بهما، بالمقابل لا يوجد عامل خارجي أَسهم في قيام دولة المماليك الجركسيَّة لأنَّها تمثِّل امتداداً واستمراراً للدولة المملوكيَّة البحريَّة .

8. عنصر الوحدة في بعض العوامل الداخليَّة والخارجيَّة التي أَسهمت في سقوط الدولتين متمثِّلة بتولِّي سلاطين ضعفاء في الحقبة الأَخيرة من عمر الدولتين، واستشراء الفساد في دوائر الدولة المملوكيَّة، وانتشار الظلم، والاحتيال، وكثرة الضرائب والمكوس، واستشراء الفساد في النظام الإداري خاصَّة بعد أن كان صمَّام قوة الدولة المملوكيَّة، ناهيك عن التدهور الاقتصادي، إذ كانت قوة المماليك الاقتصاديَّة وسيلة كبيرة للاحتفاظ بالسلطة، هذا بالنسبة للعوامل الداخليَّة، وبالمقابل كانت للحملات الصليبيَّة الموجَّهة ضد الدولتين، وضرب تجارتهما من العوامل الخارجيَّة الرئيسة التي عجَّلت سقوطهما.

9 - التنوُّع في بعض العوامل الخارجيَّة التي أَسهمت في سقوط الدولتين فدولة المماليك البحريَّة قد سقطت على يد غريمتها الدولة الجركسيَّة، في حين نجد الأَخيرة سقطت على أَيدي الدولة العثمانيَّة، وبسقوطها انتهت سلطنة المماليك لتظل مصر والشام بضعة قرون تحت الحكم العثماني، وتُعدُّ هذه الحالة قمَّة الوحدة السياسيَّة الإيجابيَّة وتنوعها في الدولة الإسلامية؛ لأنَّ العثمانيين جاءوا بالوقت المناسب بعد أَن استنفذ المماليك طاقتهم وقدراتهم بسبب الصراعات الداخليَّة بين السلاطين وضرب تجارتهم بعد اكتشاف البرتغاليين طريق رأس الرجاء الصالح، فجاء العثمانيون بقدراتهم الشابة وتسلَّموا السلطة وحموا وحدة الأَراضي الإسلاميَّة من التفكك وجابهوا التحديات الأُوربيَّة .

10- الوحدة في بعض جوانب السياسة الداخليَّة لكلا الدولتين التي تمثَّلت بجهود سلاطين الدولتين بالتصدِّي للحركات والثورات المناوئة لحكمهم، على الرغم من أنَّ معظم الثورات والفتن السياسية التي شهدتها البلاد في عصر الدولتين كان مصدرها طوائف المماليك أَنفسهم؛ لاعتقاد المماليك أنَّهم جميعاً متساوون ولهم حقّ مشروع في السلطنة فطبيعة المماليك من حيث الأَصل والتربية والنشأة جعلهم يشعرون بالمساواة فيما بينهم، فجميعهم كانوا رقيقاً جيء بهم من بلاد بعيدة وتمت تربيتهم وتدربوا حتَّى ظهروا على سطح الأَحداث، وهذا الإحساس بالمساواة انعكس على نظام الحكم طوال عصر المماليك، فآمن كلّ واحد منهم أنَّ له حقاً في تولِّي منصب السلطنة، وهذا ما دفعهم لإنكار مبدأ الوراثة.

11- التنوع في بعض جوانب السياسة الداخليَّة لكلا الدولتين الَّذي يكمن من بروز المعارضة الأيوبيَّة المناوئة لحكم المماليك البحريَّة في بلاد الشام في حين لا نجد لها أثراً في الدولة الجركسيَّة؛ لأنَّ السلطان الظاهر بيبرس قد تخلَّص من الأَيوبيين المناوئين لحكم المماليك البحريَّة، وأَنهى الزعامة الأيوبيَّة تماماً على بلاد الشام بعد أن كانت انتهت في الديار المصريَّة .

12- الوحدة في السياسة الخارجيَّة لكلا الدولتين: إذ اعتمدوا أُسلوب (إنَّ عدَّو عدوك صديقك)، فاتفقوا مع البيزنطيين، والقبيلة الذهبية من التتار، واجروا اتفاقات مع دول ومدن ايطاليا وجزر البحر المتوسط، وهو ما يفسِّر سبب طول أمد سيادة الدولة المملوكيَّة، إذ اعتمدت السياسة الخارجيَّة للحكم المملوكي على ثلاثة محاور رئيسة، وهي الدفاع عن أَرض الإسلام ونشره في بيئات جديدة، وإضافة معطيات حضاريَّة جديدة إلى بيئة الحضارة الإسلامية؛ لإغنائها .

الهوامش:

(1). ابن عبد الظاهر , محي الدين عبدالله ، (ت – 692 هـ / 1292 م) : تشريف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور , تحقيق : مراد كامل ، مراجعة : محمد علي النجار ، الشركة العربية للطباعة والنشر , ط1 ، (القاهرة ، 1961) ، ص 35 .

(2). ابن عبد الظاهر : تشريف، ص 36 ؛بول استانلي لين : طبقات سلاطين الاسلام ، تحقيق : علي البصري ، ترجمة : مكي كعبي ، دار منشورات البصري (د – م ، 1968) ، ص 67

(3). اليونيني ، موسى بن محمد بن احمد ، (ت 726 هـ / 1326 م) : ذيل مرآة الزمان ، مطبعة مجلس المعارف العثمانية ، بحيدر آباد ـ الدكن , ط1 ، (الهند ، 1954) جـ 1 ، ص186 .

(4). ابن تغري بردي ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف , (ت 874 هـ / 1469 م) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر , نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ، (القاهرة ، 1963) ، جـ 6 ، ص319 .

(5). المقريزي , تقي الدين احمد بن علي (ت 845 هـ / 1441 م) : السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق : محمد مصطفى زيادة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، (القاهرة ، 1941) ، جـ2 ، ق1 ، ص270 .

(6). الخوارزمية : هم بقايا جيش جلال الدين خوارزم شاه ، وبعد مقتله عام (628 هـ / 1223 م) اخذو يعملون كمرتزقة في خدمة الملوك المتنازعين في المنطقة . للمزيد، ينظر : العبود نافع توفيق : الدولة الخوارزمية ، مطبعة بغداد (بغداد ، 1978 م) ، ص 167- 180 .

(7). ابو الفداء ، عماد الدين اسماعيل بن علي (ت 732 هـ / 1331 م) : المختصر في اخبار البشر ، المطبعة الحسينية المصرية ، ط1 ، (القاهرة ، 1335 هـ) , جـ 3 ، ص 188 : احسان عباس : تاريخ بلاد الشام في عصر المماليك (648-923 هـ / 1250-1517م) ، مطبعة الجامعة الاردنية (عمان ، 1998 م) ، ص191.

(8).سعيد عبدالفتاح عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام ، دار النهضة العربية ، ط2(القاهرة ، 1976) ، ص5 ؛ انور زقلمة ، المماليك في مصر ، مطبعة المجلة الجديد ، (القاهرة ، د-ت) ، ص16

(9).عبدالعزيز عبدالله الخويطر : المماليك في مصر ، د-ن ، (القاهرة ، 1968) ، ص16 .

(10). ابن عبدالظاهر : تشريف ، ص37 ؛ توفيق اليوزبكي : تاريخ تجارة مصر البحريَّة في العصر المماليكي ،مؤسسة دار الكتب – جامعة الموصل ، (الموصل ، 1975) ، ص14 ..

(11). المقريزي ، تقي الدين احمد بن علي (ت 845 هـ / 1441 م) : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار , المعروف بـ (الخطط المقريزية) ، دار العرفان ، (لبنان ، 1959) ، مج3 ، ص93 ؛ احمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلاميَّة ومعجم الاسرة الحاكمة في التاريخ ، دار المعارف المصرية ، (القاهرة ، 1969) جـ1 ، ص159 .

(12). المنصورة : بلدة انشأتها الملك الكامل بن الملك العادل بن ايوب ، بين دمياط والقاهرة ، ياقوت الحموي ، ياقوت ين عبدالله (ت 626 هـ/1228م) : معجم البلدان , دار صادر ، (بيروت ، 1957) ، مج 5 ، ص212 : الحميري ، محمد بن عبدالمنعم (ت900 هـ/1495م) : الروض المعطار في خبر الاقطار ، تحقيق : احسان عباس ، مكتبة لبنان ، ط1 ، (بيروت ، 1975) ، ص449 .

(13). الفارسكور : وهي قرية من قرى مصر قرب دمياط من كورة الدقهلية. للمزيد ، ينظر ،ياقوت الحموي : معجم البلدان ، مج4، ص288.

(14). الذهبي، شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان (ت748هـ/1347م) : تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والاعلام (حوادث ووفيات 641-650هـ) ،تحقيق : عمر عبدالسلام تدمري ، دار الكتاب العربي، ط2 (بيروت ، 2002) ، ص 267؛ابن اياس ، محمد بن احمد (ت930هـ/1533م) : تاريخ مصر المشهور بـ(بدائع الزهور في وقائع الدهور) ، مطبعة الاميرية (القاهرة ، 1894)، جـ1 ،ص79

(15). ابو شامة ، شهاب الدين عبدالرحمن بن اسماعيل (ت655هـ/1266م) : تراجم القرنين السادس والسابع المعروف بـ (الَّذيل على الروضتين) ، تعليق : ابراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية ،(بيروت ، 2002) ، مج3 ، ص311؛ عماد عبد السلام رؤوف: معركة عين جالوت ، دار الحرية للطباعة ، (بغداد ، 1986)، ص53 .

(16). المقريزي ، السلوك ، ج1 ، ق2 ، ص368؛ابن تغزي بردي: النجوم الزاهرة ن ج7 ، ص7

(17). المقريزي ، السلوك ، ج1 ،مج3 ، ص322 , عماد عبدالسلام رؤوف: معركة عين جالوت ، ص53

(18). شجرة الدر : وهي من جواري الملك الصالح نجم الدين ايوب اعتقها وتزوج بها وقد ولدت منه ابنها خليل الَّذي مات صغيراً وهي بالاصل تركية الجنس وقيل ارمينيا .للمزيد، ينظر ، المقريزي ، السلوك ، ج1 ، ق2 ، ص361 ، سلمى الحضارة الكزبري : نساء متفوقات ، دار العلم للملايين ، ط1، (بيروت ، 1961) ، ص240 .

(19). ابن العبري ، غريغوريس ابو الفرج بن اهروب (ت685هـ / 1286م): تاريخ مختصر الدول ، المطبعة الكاثوليكية ، ط2، (بيروت، 1958)، ص260

(20). المقريزي ، المواعظ والاعتبار ، مج2 ، ص236 ؛ محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون في مصر ، دار الفكر العربي (القاهرة ، 1947) ، ص10 ؛ احمد حسين: موسوعة تاريخ مصر ، دار الشعب للطباعة والنشر ، (القاهرة ، 1979) ، ج2 ، ص677 .

(21). للمزيد عن سلاطين دولة المماليك البحريَّة وسنوات حكمهم، ينظر، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج11 ، ص221؛ سعيد عبدالفتاح عاشور: مصر في عصر دولة المماليك البحريَّة ، مكتبة النهضة المصرية ، (القاهرة،1959)،ص5؛استانلي لين بول: طبقات سلاطين الاسلام ،تحقيق: علي البصري، ترجمة: مكي الكعبي، دار منشورات البصري (د-م،1968) ص80-81؛ احمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الاسلامية، ج1 ، ص162؛ زامباور ادوارد فون : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في تاريخ الإسلامي ، ترجمة : سيدة اسماعيل كاشف (وآخرون) , أخرجه : زكي محمد حسن بك (وآخرون) ، دار الرائد العربي (بيروت ، 1980) ، ص162-163 .

(22). القلقشندي ، احمد بن علي (ت821 هـ /1418م) : صبح الاعشى في صناعة الانشاء ، شرح وتعليق : محمد حسين شمس الدين ،دار الكتب العلمية، (بيروت، 1987) ح1،ص420-421؛ السيد الباز العريني : المماليك، دار النهضة العربية, (بيروت،1967)، ص63 .

(23). المقريزي : المواعظ والاعتبار ، مج2 ، ص241 , ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج7 ، ص330 ؛ فليب حتي : تاريخ العرب المطول ، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع ، ط2 ، (بيروت ، 1953) ج3،ص795 .

(24). المقريزي :المواعظ والاعتبار , مج2،ص241 .

(25). القرماني، احمد بن يوسف بن احمد(ت: 1019ه/1610م):اخبار الدول واثار الاول في التاريخ، عالم الكتب(بيروت،1982م)،ص197؛ سعيد عبدالفتاح عاشور ، عصر ، ص142 .

(26). محمود شاكر : التاريخ الاسلامي – العهد المملوكي ، المكتب الاسلامي ، ط5 (بيروت ، 2000) ، ج7 ،ص70 .

(27). للمزيد عن سلاطين دولة المماليك الجركسية وسنوات حكمهم. ينظر، استانلي لين بول: طبقات سلاطين الاسلام ،ص81-82؛ احمد السعيد سليمان: تاريخ الدول الاسلامية،ج1،ص163؛ زامباور ادوارد فون : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ، ص163-164.

(28). شاكر محمود : التاريخ الاسلامي،ج7، ص71.
(29). فليب حتي : تاريخ العرب ، ج3 , ص819 .
(30). الريدانية : وهي معركة التي دارت خراج القاهرة بين المماليك بقيادة طومان باي الثاني (922-923هـ/1516-1517م) وبين العثمانيين بقيادة سليم الاول (918-926ه/1512-1520م) وانتهت بهزيمة المماليك ودخول العثمانيين مصر ، وهروب طومان باي ثم القاء القيض عليه وقتله في سنة (923هـ/1517م) . للمزيد، ينظر، ابن اياس : بدائع،ج101،3؛سعيد عبدالفتاح عاشور ،: مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك , دار النهضة العربية , (بيروت ، 1972) ، ص262 .
(31). جرجي زيدان : تاريخ مصر الحديث ، دار الهلال ، ط3 (القاهرة ، 1925) ، ج1 ، ص372-381
(32). السيد الباز العريني : المماليك، ص67-68 .
(33). المقريزي : السلوك ، ج3 ، ق2 , ص476 :
(34). ابن عبد الظاهر, محي الدين عبدالله (ت – 692 هـ / 1292 م) :الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، تحقيق ، عبدالعزيز الخويطر ، د-ن (الرياض ، 1976) ، ص99-100
(35). حسن الباشا : الالقاب الإسلاميَّة في التاريخ والوثائق والاثار ، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة ، 1957) ، ص102 .
(36). العيني، بدرالدين محمود بن احمد (ت: 855هـ/1451م):السيف المهند في سيرة الملك المؤيد(شيخ المحمودي)، تحقيق :فهيم محمد شلتوت، دار الكتاب العربي(القاهرة،1966م)،ص305
(37). الصيرفي، الخطيب الجوهري علي بن داؤد(ت:900هـ/1495م):نزهة النفوس ولابدان في تواريخ الزمان،تحقيق:حسن حبشي،دار الكتب(القاهرة،1970م)،ص45؛ مفيد الزيدي ، : موسوعة التاريخ الإسلامي العصر المملوكي (648-923 هـ/ 1258-1517م)،دار اسامة للنشر والتوزيع ، (عمان ، 2003) ، ص108.
(38). البندقدار : لقب يطلق على الَّذي يحمل جرواة البندق خلف السلطان ، والبندق عبارة عن كرات تستخدم في اثناء صيد الطيور .للمزيد، ينظر، القلقشندي ، احمد بن علي (ت821 هـ /1418م) : صبح الاعشى في صناعة الانشاء ، شرح وتعليق : محمد حسين شمس الدين ،دار الكتب العلمية، (بيروت، 1987) ج5 ، ص431 .
(39). ابن أيبك الدواداري ، أبو بكر بن عبد الله (ت725هـ / 1324م): كنز الدرر وجامع الغرر ، تحقيق : اولرخ هارمان ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه ، (القاهرة ، 1971)،ج8،ص63؛ ابن كثير ، أبو الفداء اسماعيل بن عمر (ت774هـ / 1372م) : البداية والنهاية في التأريخ ، دار ابن كثير ، (بيروت ، 1967)،ج13،.223.
(40). الصيرفي: نزهة النفوس والابدان،ص33-34؛ سعيد عبدالفتاح عاشور: الظاهر بيبرس ، المؤسسة العربية للتأليف والترجمة والطبع والنشر(القاهرة،1963)، ص19-20 .
(41). الهمذاني ، رشيد الدين فضل الله (ت718هـ / 1318م) : جامع التواريخ ، ترجمة ، محمد صادق نشات (وآخرون) ، دار إحياء الكتب العربية ، (القاهرة ، 1960)،مج2،ج1،ص313؛ المنصوري ، ركن الدين بيبرس (ت725هـ / 1324م): زبدة الفكرة في تأريخ الهجرة ، تحقيق : دونالد ريتشارد ، الشركة العربية المتحدة للتوزيع ، ط1 ، (بيروت ، 1998)،ج42،ص51 ..
(42). القلقشندي : صبح الأعشى، جـ 3، ص 498؛ السيد البازالعريني : المماليك , ص50-51
(43). الاسماعيلية: نسبة الى اسماعيل ابن الامام جعفر الصادق(ت: 143هـ/460م)، وهي من الفرق الدينية التي ظهرت في النصف الأول من القرن الثاني للهجرة / الثامن وكان من ابرز دعاتيها عبدالله بن ميمون القداح، وتأثرت برنامج الحركة الفكرية ، بحركات الغلاة التي كانت ناشطة انذاك، وأنكرت الإسماعيلية موت إسماعيل في حياة أبيه، وقالوا كان ذلك على جهة التلبيس، لأنه خاف فغيبه عنهم. ، للمزيد، ينظر، النوبختي، أبو محمد الحسن بن موسى بن الحسن بن محمد : فرق الشيعة، تحقيق: عبد المنعم الحنفي، دار الرشيد، (القاهرة، د. ت)،ص78؛ القمي، سعد بن عبد الله أبي خلف الأشعري :المقالات والفرق، صححه وقدم له وعلق عليه: الدكتور محمد جواد مشكور، مطبعة الحيدري، (طهران، 1963م)، ص79-81؛ الإسفرائيني، عبد القاهر بن طاهر بن محمد :الفرق بين الفرق، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة دار التراث، (القاهرة، د. ت)،ص81؛ محمد سعيد جمال الدين: دولة الإسماعيلية في إيران، الدار الثقافية للنشر، ط1، (بيروت، 1999م)، ص29.
(44). المقريزي : السلوك ، ج1 ، ق1 ،608 .
(45). محمود رزق سليم : عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والادبي ، المطبعة الأُ نموذجية ،(القاهرة ، 1962) ، مج1 ، ق1،ج1, ص28 .
(46). سعيد عبدالفتاح عاشور : مصر والشام ، ص203 .
(47). المقريزي : السلوك، ج3،ص477؛ سعيد عبدالفتاح عاشور : مصر ، ص151-152 .
(48). المقريزي: المواعظ والاعتبار ،مج2،ص214.
(49). ابن تغزي بردي : النجوم الزاهرة،ج7 ، ص324 .
(50). ابو الفداء: المختصر، ج4، ص24-27. .
(51). مرج راهط : المرج الأرض الواسعة الكثير النباتات وراهط موضع في غوظة دمشق. للمزيد ، ينظر ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ، مج3 , ص21 .
(52). ابن تغزي بردي : النجوم الزاهرة،ج8 ، ص176.
(53). محمد صالح داؤد القزار : الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية ، مطبعة القضاء ، (النجف ،

1970) ،ص414-41

(54). تيمورلنك:هو حفيد قراشور تويان وزير جغطاي الابن الثاني لجنكيزخان ،أطلق عليه اسم تيمور جوركان ومعناهُ 0صهر الملك) كما أن معنى اسم تيمور باللغة التركية(الحديد)،اصيب تيمور بسهم في فخده أثناء عملية سرقة الاغنام، وصار يعرج من أثر ذلك فأضيف الى اسمه كلمة(لنك) ومعناها الاعرج، فأضحى اسمه تيمورلنك .للمزيد ينظر، ابن عربشاه ، أبو محمد أحمد بن محمد، عجائب المقدور في أخبار تيمور، د-ن،(كلكتا، 1817م)،ص66-74؛عباس إقبال. تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القاجارية (205ه/820م 1343ه/1925م)، نقله عن الفارسية وقدم له وعلق عليه: محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة والنشر والتوزيع، (القاهرة، 1989)، ص598-600.

(55). البيرة : في عدة مواضع منها بلدة قرب سميساط بين حلب والثغور الرومية وهناك أيضاَ البيرة : وهي قلعة حصينة بين بيت المقدس ونابلس أيضاَ في الاندلس ، ينظر ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ، مج1، ص215

(56). المقريزي: السلوك،ج3،ص477.

(57). ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج11 ، ص7 ..

(58). مفيد الزيدي ،: موسوعة ، ص300-301 .

(59). قاسم عبده قاسم : نظم الحكم والإدارة في عصر الايوبيين والمماليك , موسوعة الحضارة العربية الإسلاميَّة ، دار الفارس للنشر والتوزيع ، ط1 ، (بيروت ، 1995) ، ص335 .

(60). المقريزي : السلوك ، ج2 ، ق1 , ص295 .

(61). ابن عبد الظاهر : تشريف، ص 36 ؛ سعيد عبدالفتاح عاشور : العصر ، ص11.

(62). المقريزي : السلوك ، ج2 ، ق1 ،ص214 .

(63). ابن العبري : تاريخ مختصر ، ص 260 .

(64). المقريزي : السلوك ، ج2 ، ق1 ،ص214

(65). محمد سهيل طقوش : تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام ، دار النفائس ، ط2 ، (بيروت ، 1999) ، ص328 .

(66). ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج8 ، ص160 .

(67). الحمايات : مكس يفرضه السلطان أو الأمير على بعض الأراضي والمتاجر والمواكب والأرزاق ، وقد اطلق عليها هذا الأسم لقيام الأمير بحماية الشخص الَّذي يدفع ذلك المكس .للمزيد، ينظر ، حكيم أمين عبد السيد : قيام دولة المماليك الثانية ، الدار القومية للطباعة والنشر ، (القاهرة ، 1966) , ص21.

(68). المقريزي : السلوك ، ج1 ، ق2 ، ص875 .

(69). ابو الفداء : المختصر ، ج3 , ص183 .

(70). ايبك : لفظة تركية مركبة من كلمتين اي وتعني (القمر) وبك (امير) ومعناه ، امير القمر . ينظر ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج7 ، ص19 .

(71). ابن العبري : تاريخ مختصر ، ص260 .

(72). توفيق اليوزبكي : تاريخ تجارة مصر ، ص24.

(73). المقريزي : السلوك ، ج3 ،ق1 ، ص477 .

(74). ابن اياس : بدائع،ج1،ص269.

(75). محمد سهيل طقوش : تاريخ المماليك ،ص175 .

(76). الذهبي : تاريخ الإسلام (احداث ووفيات ، 641-650هـ) ، ص267

(77). اليونيني : ذيل ، ص360 .

(78). قاسم عبده قاسم: نظم الحكم ,ص282 .

(79). انطول خليل ضومط : الدولة المملوكية ، التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري , دار الحداثة , ط1 , (بيروت ،1980) ، ص11 .

(80). الاتابك : لقب تركي ظهر في أيام السلاجقة , وهو مشتق من (اتا) بمعنى الوالد ،و(بك) يعني الامير اي (الوالد الامير) فكان يطلق على من يتولَى تربية اولاد سلاطين السلاجقة اي انه يقوم بدور المؤدب للامير الصغير. للمزيد ، ينظر ، ابن خلكان ، شمس الدين احمد بن محمد (ت681هـ/ 1282م) : وفيات عيان وانباء الزمن ، تحقيق : احسان عباس ، دار صادر ، (بيروت ,1977) ، ج1 ، ص365

(81). محمد سهيل طقوش : تاريخ المماليك ، ص300 .

(82). المقريزي : السلوك : جـ 3، ق1، ص 475 ؛محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون ، ص66

(83). سعيد عبدالفتاح عاشور:العصر،ص129. .

(84). علي ابراهيم حسن ،: تاريخ المماليك البحريَّة ، مكتبة النهضة العربية (القاهرة ، 1967) , ص124

(85). ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج11 ص210

(86). ابن تغري بردي ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت874هـ / 1469م) :المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي تحقيق: دكتور محمد محمد أمين،الهيئة المصرية العامة للكتاب(القاهرة، د-ت)، ج5،ص48-49؛ طقوش : تاريخ المماليك ، ص305 .

(87). ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،ج11، ص7؛سعيد عبدالفتاح عاشور : العصر ، ص135

(88). المقريزي : السلوك : جـ 3، ق1، ص 475 ؛سعيد عبدالفتاح عاشور : العصر ، ص135

(89). سعيد عبدالفتاح عاشور : العصر ، ص135-136 .
(90). المقريزي : السلوك، جـ 3، ق1، ص106-107.
(91). السلوك ، ج3 ، ق1 ن 108 ..
(92). ابن كثير: البداية والنهاية، ج13،ص232؛ طقوش : تاريخ المماليك ، ص555 .
(93). عمار محمد النهار: تاريخ المماليك، مطابع جامعة دمشق(دمشق،2014)،ص559.
(94). محمد سهيل طقوش : تاريخ المماليك ، ص556 -557..
(95). ابن اياس : بدائع،ج2، ص343. .
(96). سعيد عبدالفتاح عاشور : العصر , ص337 .
(97). ابن ايبك الدواداري: كنز الدرر،ج8،ص363-364.
(98). محمد سهيل طقوش : تاريخ المماليك ، ص559 .
(99). ابن تغري بردي : النجم الزاهر , ج9 ،ص93 .
(100). محمد سهيل طقوش : تاريخ المماليك ، ص559
(101). مفيد الزيدي : موسوعة ، ص302 .
(102). امير خور الاكبر : وظيفة يقوم صاحبها بالأشراف على إسطبل السلطان ورعاية ما فيها من خيل وحيوانات, أي انه يسيطر على جميع الخيول السلطانية , ينظر ، سعيد عبدالفتاح عاشور : العصر ، ص414 .
(103). انطول خليل ضومط : الدولة المملوكية ،ص79 .
(104). الاستادار: وظيفة من وظائف ارباب السيوف يتولى صاحبها شؤون بيوت السلطان كلها من المطابخ والشرب والحاشية والغلمان وله مطلق التصرف في استدعاء ما يحتاجه كل من في بيت السلطان من النفقات والكساوي وما يجري مجرى ذلك من المماليك وغيرهم .، ينظر القلقشندي : صبح الاعشى ، ج4 ، ص20 ؛ ج5 ، ص457 .
(105). المقريزي : السلوك ، ج3 ، ق3 ، ص995.
(106). انطول خليل ضومط: الدولة المملوكية ، ص99 ..
(107). سعيد عبدالفتاح عاشور : العصر ، ص363 .
(108). ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،ج9، ص87.
(109). ابن طولون، شمس الدين محمد(ت:953هـ/1546م): مفاكهة الخلان في حوادث الزمان(تأريخ مصر والشام)، تحقيق: محمد مصطفى، دار إحياء الكتب العربية،(القاهرة،1962م)،ج1،ص51 .
(110). ابن اياس : بدائع ، ج3 ، ص474 .
(111). ابن اياس : بدائع ،ج4،ص891.
(112). مفيد الزيدي : موسوعة ، ص304-305.
(113). انطول خليل ضومط: الدولة المماليك ، ص14 .
(114). مفيد الزيدي : موسوعة ، ص308 .
(115). مرج دابق : منطقة قرب حلب, دارت بها معركة بين المماليك الجركسية بقيادة السلطان قانصوه الغوري والعثمانيين بقيادة السلطان سليم الاول في (25 رجب – 922هـ/اب – 1516م) وانتهت بهزيمة المماليك ومقتل قانصوه الغوري. للمزيد , ينظر، ابن اياس : بدائع ، ج3 ، ص45 .
(116). ابن اياس: بدائع،ج3،ص101؛ محمد سهيل طقوش : تاريخ المماليك ، ص569 .
(117). سورة آل عمران : من الآية , 140 .
(118). العينى ،بدرالدين أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى (ت: 855هـ/1451م): عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق: محمد محمد امين، الهيئة المصرية العامة للكتاب(القاهرة، د-ت)،ج1،ص27
(119). القيمرية : نسبة الى قيمر وهي قلعة من الجبال بين الموصل وخلاط وكان أهلها من الاكراد واليها نسب هؤلاء الاكراد. للمزيد، ينظر ،ياقوت الحموي ، معجم البلدان , مج4 , ص218 .
(120). ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر(ت749هـ / 1348م) : تأريخ ابن الوردي ، تحقيق : محمد مهدي السيد حسن الخرساني ، المطبعة الحيدرية،(النجف ، 1969)،ج2 ، ص264
(121). العينى: عقد الجمان،ج1،ص33.
(122). اليونيني : ذيل ، ج1 ، ص376 .
(123). المقريزي : السلوك ، ج1 ، ق1 ، 286؛ سعيد عبدالفتاح عاشور : العصر ، ص362 .
(124). المقريزي : السلوك ، ج6 ، ق1 ، 286 .
(125). المقريزي : السلوك ، ج6 ، ق1 ، 286 ؛سعيد عبدالفتاح عاشور : العصر ، ص326 .
(126). سعيد عبدالفتاح عاشور : العصر ، ص328 .
(127). المقريزي : السلوك ، ج2 ، ق1 , 128 .
(128). سعيد عبدالفتاح عاشور : مصر والشام ،ص328 .
(129). سعيد عبدالفتاح عاشور : العصر ، ص221
(130). المقريزي : السلوك ، ج6 ، ق1 ، 286 ؛سعيد عبدالفتاح عاشور : مصر والشام ،ص340
(131). سعيد عبدالفتاح عاشور : مصر والشام ،ص341 .
(132). سيف الدين كوندك : وهو من جملة الامراء الظاهرية إذ تولى نيابة السلطنة في مصر على عهد السلطان السعيد

(676-677هـ/1277-1279م) وعلى أثر قيام المنصور قلاوون باضطهاد الظاهرية الذين تامروا ضده فقام بعزل كوندك ولما اراد كوندك اغتيال المنصور قلاوون قبض عليه وارسله الى بحرية طبرية إذ برق غرق فيها. للمزيد ، ينظر ، ابن عبدالظاهر ، تشريف ـ ص84 .

(133). ابو الفداء: المختصر،ج4، ص13؛سعيد عبدالفتاح عاشور : العصر ، ص223 .

(134). ابن تغري ي بردي : النجوم الزاهرة ، ج9 ، ص145-147 .

(135). الدوادار : أي ممسك الدواة ، الوظيفة اسمها الدوادرية وصاحبها يحمل دواة السلطان أو الامير ويقوم بإبلاغ الرسائل عنه وتقديم القصص والشكاوي اليه . ينظر ، سعيد عبدالفتاح عاشور : العصر ، ص438

(136). سعيد عبدالفتاح عاشور : مصر والشام , ص345 .

(137). سعيد عبدالفتاح عاشور: العصر،327.

(138). يلبغا الناصري / نِسْبَة لجالبه الظَّاهِريّ برقوق الأتابكي. أَصله من أَعْيَان خاصكية ثمَّ قدمه النَّاصِر وَلَده وَلما تجرد إِلَى الْبِلَاد الشامية جعله نَائِب غيبته بِالْقَاهِرَةِ، لما تسلطن الْمُؤَيد نَقله إِلَى الأتابكية مَاتَ فِي سنة(817ه/1414م) . للمزيد، ينظر، السخاوي ،شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات دار مكتبة الحياة (بيروت، د-ت)، ج6، ص290-291

(139). منطاش: كَانَ اسْمه تمربغا وتنقل منطاش إِلَى أَن ولاه الظَّاهِر برقوق نِيَابَة السلطنة بملطية فِي سنة(788ه/1386م) فَجمع كثيرا من التركمان وَأظْهر الْعِصْيَان فَلَمَّا بلغ الظَّاهِر ذَلِك جهز إِلَيْهِ عَسْكَر وَقبض عَلَيْهِ وامر بقتْله و ذَلِك فِي سنة (795ه/1392م).للمزيد، ينظر، ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد(ت852هـ / 1448م) : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: محمد عبد المعيد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية - حيدر اباد(الهند،1972)،ج6، ص128-130 .

(140). ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج11 ،ص259 .

(141). المقريزي : السلوك ، ج3 ، ق1 ، ص666-667 .

(142). المقريزي : السلوك ، ج3 ، ق1 ، ص667 ..

(143). سعيد عبدالفتاح عاشور : مصر والشام ، ص348 .

(144). سعيد عبدالفتاح عاشور : العصر ، ص336 .

(145). ابن اياس : بدائع ، ج2 ، ص235 .

(146). عمار محمد النهار: تاريخ المماليك ص83-84.

(147). بدائع،ج1، ص173.

(148). ديوان الإنشاء : أهم الدواوين ويوجد في القلعة وله (قاعدة الانشاء) مخصصة له ورئيسه من رجال القلعة من المصريين ويلقب بصاحب الانشاء أو كاتم السر أو كاتب السر لأنه يكتم اسرار الدولة , ووظيفة الديوان هي تبادل المكاتبات الرسمية الخاصة للدولة وهي ترد للسلطان من مختلف الدول ، والرد عليها واعداد الرسائل والخطابات التي يبعث بها السلطان إلى مختلف الامراء والملوك. للمزيد . ينظر ،مفيد الزيدي : موسوعة ، ص217 .

(149). سعيد عبدالفتاح عاشور : مصر والشام ، ص352 .

(150). النجوم الزاهرة،ج7،ص147.

Abstract

Some aspects of which still need efforts of researchers to complete the political image for these two countries. Therefore, this research began dealing with unity and diversity in the political situations of these two countries, which is an important aspect in the study of nearly three centuries of history of the Islamic nation because it include an important aspects of the history of these two countries. Researchers had to expose Islamic influence in the basic components of the Emirates and the States, which was born from the womb of the State Center dimensions (Mother) and what Islamic minds achieve there. Muslims have succeeded in building a strong nation and State holding million individuals of different ethnicities; and live alongside each other easily and conveniently making use of their former heritage and experiences in the construction of a great civilization that left enormous wealth still active and vital in the field of the history of world civilization .